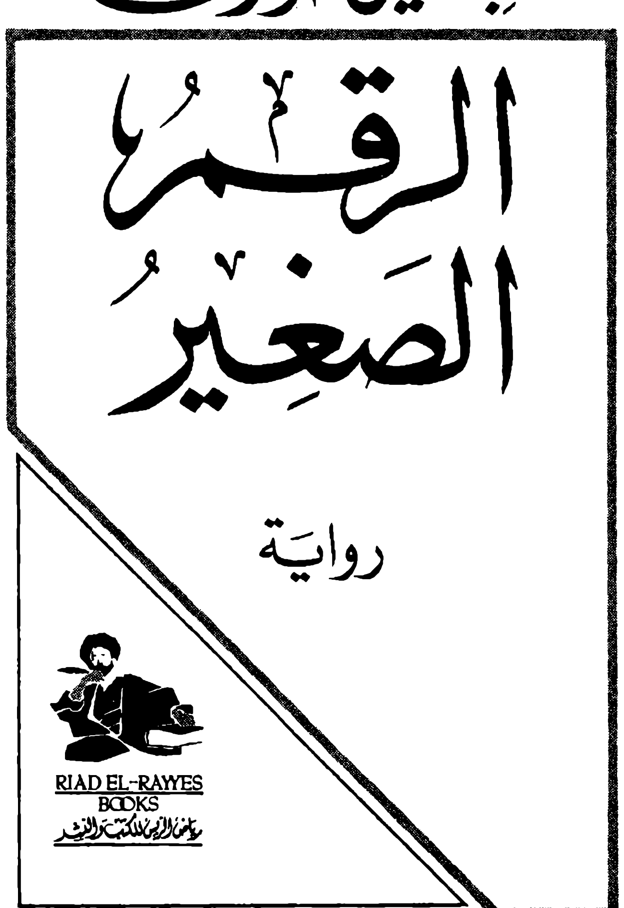
نبيل خوري



الرَّقَمُ الصَّغِيرُ

نبيل خوري



الرقم الصغير

رواية

THE TINY FIGURE

BY

NABIL KHOURI

First Published in 1995

LONDON - BEIRUT - CYPRUS

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513- 4551

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٥

مقدمة

كتبت هذه الرواية في مطلع الستينات، ونشرتها في مجلتي (يومها) «الحسناء»، ولم أعد قراءة «الرقم الصغير» إلا بعد، ما يزيد عن الثلاثين عاماً.

ولم أغير فيها حرفاً واحداً، فقد اردتها أن تبقى شاهداً على فترة معينة من حياة بيروت، وشاهداً على اسلوب نسيت كيف كنت أكتبه.

هل ما جاء في الرواية يعبر عن همومنا في تلك الفترة.. وهل كانت الدنيا، دنيا بيروت، آنذاك، هي فقط ما دار في أحداث الرواية؟

الجواب: لا.. لأن هذا العالم الذي تتحدث عنه الرواية كان جزءاً صغيراً مما يجري في بيروت.. أما الأجزاء الأخرى، الهموم الكبرى التي تعصف بالأمة العربية، فقد كنا نعيشها حتى الثمالة، ولكننا ونحن يومها في فورة الشباب، وعزه وغروره، كنا على ثقة عمياء بأننا أكبر من هذه الهموم، وأننا سننتصر عليها.

من هنا جاءت الكتابة عن «قضايا» اخرى مثل «الرقم الصغير»، إلى أن جاءت هزيمة عام ١٩٦٧، فإذا بنا أمام الواقع المرير مرة واحدة، وإذا بنا نشيخ في خمسة أيام خمسة قرون.

بعد «الرقم الصغير»، كتبت «حارة النصارى» (قصة سقوط القدس

التي عشتها)، فكان الانتقال من الرواية الاجتماعية إلى الرواية السياسية.

مع ذلك، لم أجد مانعاً من نشر «الرقم الصغير» عندما تكرم الصديق الغالي رياض نجيب الريس بقبولها.

انشرها كما كتبت، لأنها كما قلت تعبر عن تاريخ فترة من حياة بيروت، وتاريخ فترة من حياة الإنسان في بيروت.

نبيل خوري

«عد إلى البيت...

«عد إلى البيت يا جوني...

«عد إلى البيت...

«عد إليّ، فأنا بانتظارك».

وبالرغم من أنّ اسمه لم يكن جوني، فلقد شعر بأنّ الصوت الناعس الأبحّ كان يدعوه هو للعودة إلى البيت، وظلّت الأسطوانة تدور، وظل الصوت يستجدي، عد... عد إلى البيت، حتى وجد نفسه ينهض ويومىء لفتاة «البار» الشقراء ان تعطيه الحساب... وبينما كانت تردّ له بقية نقوده همس:

- هل انتظرك؟

- لا.. ليس الليلة!

- غداً؟

- يجوز...

وضحكت وهي تستدير لتصبّ كأساً جديدة لزبون آخر... لم يستجب لدعاء الأسطوانة، فبقي جالساً إلى البار يشرب، ويستمع، ويدخن... ويدوخ مع حلقات الدخان التي تملأ المكان..

وارتمى فؤاد داخل التاكسي الذي انطلق به إلى المنزل، والصوت الأبحّ يلاحقه: «عد... عد إلى البيت...» مع بقايا ذكريات الليلة التي قضى معظمها جالساً إلى البار يشرب، ويدخن ويستمع إلى الأغنية تلو الأخرى... ويفرغ كبته في أذن الشقراء القادمة من وراء البحار، والتي توزّع وقتها بدون تحيّز بينه وبين غيره من الزبائن الجالسين كالأصنام إلى البار، يد على الخد... وأخرى تحمل سيجارة وكأس.

ولم يشعر إلا والسيارة تقف أمام المنزل، فيقذف للسائق بأجرته، ويتوجّه نحو المدخل في مشية حاول جاهداً أن لا يجعلها مترنحة. وبكل هدوء ضغط على زرّ المصعد ووقف ينتظره وهو يتحسّس شعره. ولم يستطع أن يغالب شبح ابتسامة طافت على شفتيه عندما تذكّر كلمات الأغنية التي تقول «عد إليّ.. فأنا بانتظارك..».

فلم يكن بانتظاره في البيت إلاّ سرير كئيب موحش، وإبريق ماء يضعه بجانب السرير كي يطفىء اللهيب المستعر في جوفه، بين ساعة وأخرى. واكتشف، وهو يبتسم أن المصعد قد وصل، فدخل إليه ثم ضغط الزر إلى الطابق الخامس، وما إن بدأت رحلة الصعود حتى ركّز انظاره على المرآة الكبيرة المثبتة على طول المصعد. لم يرقه منظر وجهه، كوجه إنسان مُرهق تعب.

الهالات الزرقاء تحيط بعينيه، وداخل عينيه احمرار أين منه احمرار الشفق، والشعر الأسود النابت في ذقنه يضيف إلى منظره التّعِب تَعَباً، وعلى أطراف فمه ذبول من كثرة ما شرب، وأغمض عينيه كي يطرد الصورة التي يراها أمامه. ثم فتح باب المصعد الذي توقّف فجأة واندفع إلى الرواق... مستعجلاً الخطى ليفتح الباب ويدخل إلى المنزل.

كان أوّل ما فعله عندما دخل إلى المنزل أن ذهب إلى الثلاجة فأخذ إبريق الماء، وبعد أن عب منه بنهم حتى ارتوى حمله... وذهب لينام. وخلع ثيابه في دقيقة واحدة، ثم ارتمى على السرير يلهث وكأنه قد انتهى لتّوه من معركة ضارية.

ودبّ النعاس في جفنيه رويداً رويداً...

نعاس أشبه بالخدر...

وما هي إلاّ لحظات حتى كان يغطّ في نوم عميق.

* * *

مدّ يده في الظلام، وطاف بها لحظات حتى استقرّت فوق إبريق الماء على المائدة الصغيرة بجوار سريره. وتناول الإبريق بيد راجفة، ثم رفعه إلى شفتيه، وكالطفل الجائع إلى صدر أمه، بدأ يعبّ الماء بأنفاس مبهورة.

وظلّ يعبّ من الإبريق حتى آخر قطرة منه، ثم ارتمى على السرير يلهث! هذه هي المرة الثالثة التي يستيقظ فيها ليعبّ الماء من الإبريق. وفي كل مرة كان يشعر أن الماء قد أعاد إليه الحياة، أعاد الروح إلى شفتيه المتيبستين كقطعة من حطب،

وإلى لسانه الملتهب كجمرة نار، وإلى جوفه المستعر كاللهب. وعندما عادت إلى أنفاسه رتابتها، حاول أن يعود إلى النوم... فعصي النوم عليه. وتقلّب في فراشه، يدور إلى اليمين، ثم إلى اليسار... ثم ينام على ظهره... ثم يعود إلى التقلّب.

كان رأسه خفيفاً كالريشة، وجسده ثقيلاً كقنطار رصاص. وتحسّس رأسه ليتأكّد من إنه ما زال هناك، أو ليلمس بيده كيف يركب رأس من الريش على جسد من رصاص، وعندما فشل في تحليل هذا التركيب العجيب، فتح عينيه... وحدّق في السقف.

وبالرغم من كمّية الويسكي الهائلة التي كانت تستقرّ في معدته، والتعب الهائل الذي يسيطر على كلّ جزء من أجزاء جسده، فقد ظلّ يقظاً، يفكّر ببلاهة في أشياء لا علاقة لها بالتعب... أو السهر أو الويسكي.

مرّت في ذهنه مثلاً حادثة صغيرة جرت له في طفولته... ثم قفز منها إلى حادثة جرت له قبل أيام، ثم اختلطت الحوادث والحكايات والقصص في ذهنه، وتزاحمت... فطار النوم نهائياً من عينيه.

وجلس في السرير ثم أضاء النور، وتناول كتاباً بدأ يقلّب صفحاته ببطء.. كان الكتاب قصة طويلة لكاتب أمريكي مجهول.. قصة طبيب متزوج وقع في حب ممرّضته الحسناء، وتدور حوادث القصة بين عيادة الطبيب وغرفة العمليات.. والقصة عادية في عقدتها واسلوبها وحوارها ولكنها من النوع الذي... يساعد على النوم. فهي لا تحرّك في القارىء ذرّة من

التفكير، وإنّما تنقله إلى أجواء جديدة تجعله بعد صفحات قليلة يتتبّع الحوادث بشغف ونهم، وكأنه يشاهد فيلماً مسلّياً، أو يستمع إلى حكاية عاطفية من صديق طريف.

وكان المشهد الذي وصل إليه في القراءة، يصف شعور الزوجة عندما بدأت تشكّ في العلاقة المحرّمة بين زوجها والممرضة... لقد ذهبت إلى عيادته أمس ولما لم تجد السكرتيرة فتحت الباب فجأة لتجد زوجها والممرضة يقفان بالقرب من النافذة وكأنهما قد انتهيا لتوّهما من قبلة، أو هما في طريقهما إلى قبلة. وفوجئا بها فظهر الارتباك عليهما، وخصوصاً على الزوج الذي خانه النطق فلم يعرف كيف يرحّب بها.

واعتذرت هي عن «الازعاج». ثم تحدّثت مع زوجها لدقائق بعد خروج الممرضة. تحدّثا في موضوع المنزل الجديد الذي ينويان شراءه، وعادت بعدها إلى المنزل. كان من الصعب عليها أن تصدّق بأنّ زوجها يخونها. فهي جميلة، أجمل بكثير من الممرضة، وقد تزوّجته بعد قصة حب عنيفة كانت حديث المدينة لسنوات... وها قد مضى على زواجهما أكثر من سبعة أعوام كان فيها مثال الزوج المحب، المحب لزوجته وأطفاله ومنزله، حتى أنها كانت تقول له في كثير من الأحيان «لقد نسيت كيف تكون الغيرة»...

وهي الآن تشعر بالغيرة. بل تشعر بأنّ كبرياءها قد جُرح...

تشعر بأن شكوكها لو أصبحت يقيناً فلنِ تستطع أن تعيش معه للحظة واحدة بعد اليوم...

ولكن...

ويعذّبها الشكّ من جديد...

قد تكون مخطئة؟؟

فالذي رأته لا يثبت خيانة زوجها...

وبدأت تجد له الأعذار.

إنها تحبه، إنها تعبده، ولا تستطيع أن تهدم حباً كبيراً كهذا نتيجة حادثة صغيرة كالتي رأتها... وقرّرت أن تسأله...

قررت أن تصارحه.

فقد تعوّدت دائماً أن تصارحه بكل شيء...

ستقتل عذاب الشكّ في قلبها فور حضوره...

وجلست تنتظره.

وينتقل الكاتب بعد ذلك إلى عيادة الزوج الطبيب.

هناك كان يجلس وهو يدخّن بعصبية...

فهو يعرف ان زوجته ستسأله بصراحة عن علاقته بالممرضة...

وهو يحبّ زوجته... ويحبّ الممرضة في الوقت ذاته...

إنه موزّع بين الزوجة والعشيقة...

موزّع بين القديم والجديد...

يريد أن يهجر الممرضة... ولا ينقذه من الدوامة التي تهدر في رأسه إلا دخول الممرضة لتخبره بأن عملية مستعجلة تنتظره في غرفة الجراحة، وينهض من مقعده، فتحاول الممرضة ان تقبّله

فيدفعها بعيداً بطريقة جافة... وينطلق إلى غرفة العمليات، والممرضة تتبعه.

وهنا يبدأ الكاتب في وصف دقيق، مملّ، لما يجري داخل الغرفة، والنظرات المبهمة التي يتبادلها الطبيب والممرضة على جسد المريض الذي ينتظر مبضع الجراح لينقذه من الموت.

وهنا أغلق فؤاد الكتاب ثم أطفأ النور، وحاول مرة ثانية أن ينام. وما كاد يغفو للحظات، حتى قفز من فراشه مذعوراً على صراخ إمرأة أجنبية تصيح مستغيثة.. كانت تصرخ بالإنجليزية: النجدة.. النجدة.

وركض إلى باب المنزل ففتحه، وقبل ان يخطو الخطوة الأولى إلى الرواق، كانت أبواب الجيران الذين إستيقظوا على صراخ الإستغاثة تفتح كلها دفعة واحدة، ويطلّ أصحابها وإمارات النوم والاستغراب ظاهرة على وجوههم.

وانطلقوا جميعاً نحو مصدر الصوت في الطابق الثالث، بينما أضيئت جميع النوافذ في البناية، والبنايات المجاورة وأطلّت منها رؤوس النساء.

وكان فؤاد أوّل من وصل إلى الطابق الثالث، ليفاجأ بأمرأة أجنبية عارية تماماً تركض هاربة من رجل يحمل في يده سكيناً طويلة..

وعرفهما فوراً، فقد كان الرجل طيّاراً أجنبياً يقطن في البناية وكانت المرأة المذعورة العارية، زوجته.

وكان من عادة الزوج أن يشرب كل ليلة حتى يفقد وعيه،

وكان من عادته أيضاً أن يضرب زوجته كلما سكر... ولكن لم يكن من عادته أبداً أن يلاحقها بسكين طويلة.

وهجم فؤاد على الزوج يحاول أن ينتزع السكين من يده... في اللحظة التي كان فيها يغرز السكين في كتف الزوجة!

وتفجّر الدم... فأغرق وجه فؤاد وصدره..

* * *

ورأى الزوج منظر الدم يتفجّر من كتف زوجته، ثم نظر إلى السكين في يده تقطر دماً وحدّق في وجه فؤاد وهو يسرع إلى أخذ الزوجة الجريحة بين يديه، والتف حوله الجيران ينظرون إليه وكأنه حيوان أطلق لتوّه من القفص. فحاول أن يهرب... رمى السكين من يده، وتراجع إلى الوراء مندفعاً إلى باب بيته المفتوح، يهرب إليه، مما فعل، ومن عيون الجيران... لكن الأيدي الكثيرة حالت دون ذلك، وشدّته إلى مكانه، وفجأة، وكأنه بدأ يعي ما فعل... إنهار على الأرض يبكي، ويصرخ كطفل صغير.

وبينما كان فؤاد يحمل الزوجة بين يديه لينقلها إلى المستشفى، كان صوت الزوج يملأ الشارع النائم الهادىء بكاء وصراخاً. نقل فؤاد الزوجة التي أغمي عليها، بسيارة أحد الجيران إلى مستشفى الجامعة الأميركية، وانتظر حتى حضر الطبيب، وأدخلت إلى غرفة العمليات، وعندما اطمأنّ إلى أن الجرح كان بسيطاً، وأن الزوجة ستعود إلى منزلها بعد ظهر الغد، عاد مع جاره إلى البيت.

وعرّج فور وصوله إلى الطابق الثالث ليرى ما حلّ بالزوج. ووجده يجلس في منزله وحوله الجيران.

كان هادئاً، ذاهلاً، يشرب فنجاناً من القهوة الساخنة، وعيناه تنظران إلى أرض الغرفة، وكأنهما مسمّرتان في السجادة الصغيرة، لا تتحرّكان... كعيني إنسان مات قبل لحظات.

وأثار منظره الشفقة في قلب فؤاد.

وحار في تفسير هذا الشعور...

كيف يشفق على إنسان كاد يقتل زوجته.

كيف يشفق على شخص لولاه لارتكب جريمة قتل.

ولكنه، لم يفعل ما فعل، وهو في كامل قواه العقلية...

لقد ذهبت الخمرة... بقواه وبسيطرته على أعصابه.

إنه، في العادة، إنسان بشوش، هادىء، لطيف.. يكاد يخجل من طرح السلام عليك، إذا التقى بك.

لكن، الخمرة... أو على الأصحّ كثرة الخمرة، تحوّله إلى وحش هائج لا يعي ما يفعل.

وكم من الليالي استيقظ الجيران على صوته مخموراً، يصرخ، ويشتم، ويحطم أثاث المنزل.

وزوجته، الصغيرة... الجميلة، تحتمل كل هذا، من أجل طفلتها الوحيدة. وتحتمله لأنها تعرف أن هذا التصرف ليس في طبيعته. وإنه لا بدّ عائد إلى طبيعته في الصباح.

ومن أجل هذه الدقائق كل ليلة، الدقائق التي ينقلب فيها إلى

وحش... أرسلت ابنتها لتعيش مع أمها في استراليا كي لا تنشأ في هذا الجوّ المخمور.. الموبوء. وطلب فؤاد من الجيران أن يعودوا إلى منازلهم وبقي هو مع الزوج الذاهل.

وما أن أغلق باب المنزل خلف الجيران، وعاد فؤاد ليجلس بجانبه، حتى بادره قائلاً:

ـ اسمع، ليس لي الحق أن أتدخلّ في حياتك الخاصة... ولكن عندما تصبح حياتك الخاصة سبباً لإزعاجي وإزعاج الجيران، فإنني أعطي لنفسي الحق بالتدخّل.

ولم يجب «مايك» ـ الزوج ـ بل رفع رأسه ونظر في عيني فؤاد وكأنه اكتشف الآن فقط وجوده بجانبه، بل لعلّه اكتشف الآن فقط... ما فعل! وبصوت مجروح قال: ـ اعطني سيجارة!

وناوله فؤاد سيجارة، أشعلها له... ثم جلس ينتظر كي ينتهي من امتصاصها بقوة، وينفث دخانها ببطء...

وعندما يئس من الحصول على الإجابة، استأنف حديثه قائلاً:

ـ قد يكون الوقت غير مناسب للحديث الآن... أتحب أن نتحدث في وقت آخر؟ ونهض مستعداً للذهاب.

فأمسك بيده، وقال بصوت يشبه الرجاء: لا، لا... أرجوك. أتوسل إليك لا تتركني وحدي الآن. اجلس، اجلس أرجوك، سنتحدث الآن.

وجلس فؤاد وقد تضاعف في قلبه شعوره بالشفقة نحوه.

وبعد أن طلب سيجارة أخرى، أشعلها بنفسه، بدأ يتحدث.

قال بصوت متعب:

ـ لك كل الحق في ان تتدخّل في حياتي الخاصة. لقد فرضت عليك، بتصرفاتي، هذا التدخل، وأنا استغرب كيف لم تستدع رجال الشرطة حتى الآن!! ففي بلادي يتّصل الناس بالشرطة إذا رفع الجار صوت الموسيقى قليلاً، أو إذا تحدّث في الليل بطريقة مزعجة.. فكيف إذا ارتكب جريمة. وقد نشأت وترعرعت في هذا الجو، الجو الذي علمني أن أحترم شعور الآخرين واحترم راحتهم.. ولكن.

وتوقف مايك عن الحديث، ثم تنهد ووضع رأسه بين يديه، وتابع، كمن يروي قصة. ولكن...

ولكن كل هذه العادات الطيبة، كل هذا الإحساس اختفى عندما عدت من الحرب في بلدي، إيرلندا.

لقد شاهدت في الحرب من الويلات، واشتركت في مجازر، جعلتني أدمن على الخمرة. أصبحت أغرق نفسي فيها كل ليلة حتى أنسى.. أنسى ما شاهدت. والخمرة، كما ترى تحوّلني من إنسان إلى حيوان.

في النهار... أحب منزلي، وزوجتي.

في النهار... أحب عملي.

في النهار... أكون الإنسان المهذّب المتحضّر..

وفي الليل... انقلب إلى جندي، يسكر حتى العمى، ويعامل زوجته كفتاة شارع.

في الليل... عندما أسكر، أطلب من زوجتي، ما كنت اطلبه

من فتيات الليل اللواتي كنت أنا ورفاقي نلتقطهن من الزوايا، لنفرغ معهنّ قسوة أيامنا.

وعندما ترفض زوجتي إلاّ أن تكون إمرأة مهذّبة...

عندما ترفض أن تكون فتاة شارع، أنقلب أنا إلى الوحش... الذي رأيته. ثم أندم، وأستغفر، وأبكي.

وتصفح زوجتي، الطيبة، الحنون... التي تحبني. ولكن...

وتوقف مرة ثانية عن الحديث، ليمسح دمعة بدأت تنساب من عينيه.

ولكن، هل ستصفح هذه المرة.

أنا لا ألومها إن لم تعد إلى المنزل. ولا... ألومها لو طلبت الطلاق غداً.

وحار فؤاد كيف يجيب على حديث الرجل، وماذا يجيب...

ماذا يقول له.

إنه يعرف ما فعل، ويعي خطورة ما فعل، وهو نادم على ما فعل، وليس بحاجة إلى من يلومه، أو ينصحه.

إنه بحاجة إلى من يفهمه. بحاجة إلى صديق.

وتضخم الشعور بالشفقة في قلب فؤاد.

فنهض ووضع يده على كتفه، ثم قال: هل تقبلني صديقاً لك؟

وبهت مايك... بهت من هذا العرض الذي لم يكن يتوقعه. وتحامل على نفسه فنهض عن الكرسي، ثم مدّ يده مصافحاً فؤاد، وعيناه مغرورقتان بالدمع. وبأنفاس متهدّجة متقطعة قال:

ـ بل أرجوك أن تقبل بي صديقاً..

ـ إذاً... أرجوك أن تذهب لتنام. أنت بحاجة إلى النوم.

وتركه فؤاد لينام.

وصعد إلى بيته ليسرق دقائق من النوم قبل أن يذهب إلى عمله.

* * *

عندما عاد من عمله عند الظهيرة وجد فؤاد ورقة صغيرة في البيت من مايك، يطلب منه فيها أن يتّصل به فور وصوله.

واتصل به بالتلفون. وما أن سمع مايك صوته حتى قال بلهفة:

ـ لقد وعدتني أن تكون صديقي... أنا الآن بحاجة إلى صداقتك. وأجابه فؤاد باستغراب: طبعاً.. طبعاً.

ـ إذاً يجب أن أراك فوراً.

ودعاه إلى النزول إلى بيته...

وفي خلال دقائق كان يجلس معه. وسأله فؤاد إن كان قد تناول طعام الغداء فأجاب بالنفي، وتابع: ولكنني لا أشعر بالجوع...

وألحّ عليه أن يتناول طعام الغداء معه... فقبل بعد تردد طويل وقبل أن يحضر الطعام كان مايك قد أخبره... بمشكلته. لقد ذهب إلى المستشفى في الصباح الباكر ليزور زوجته فرفضت أن تستقبله. قالت للممرضة: إنني لا أعرف إنساناً اسمه «زوجي».

وحاول جاهداً أن يراها ففشل. مما اضطرّ الممرضة أن تطلب منه ترك المستشفى لأن هذا يؤثر على أعصاب المريضة، وهي بحاجة إلى الهدوء.

وبعد أن روى مايك القصة، بكل تفاصيلها، طلب من فؤاد أن يذهب إلى المستشفى، ويقابل زوجته، ويسعى لاقناعها برؤيته، وبالعودة إلى منزلها.

واعتذر فؤاد عن هذه المهمة الصعبة المحرجة.

لكنه عاد فقبل أمام إصرار الرجل... وتوسلاته. ووعده بأن يزور زوجته فور انتهائه من الغداء..

وأثناء الغداء كان مايك يجلس صامتاً، مطرقاً، ساهماً.

ورفض ان يمدّ يده إلى الطعام، وكأنه يقول لفؤاد: أنا صائم عن الطعام حتى تعود زوجتي.

وما أن انتهى الطعام، حتى نهض مع فؤاد ليوصله بسيارته إلى المستشفى. وعندما وصلا إلى باب المستشفى، قال له:

ـ سأنتظرك هنا حتى تعود... فقد ترفض رؤيتك إذا عرفت إنني برفقتك.

وتركه فؤاد ودخل وهو حائر كيف يتحدث إلى الزوجة. وعلى باب الغرفة وقف في انتظار أن تسمح له بالدخول، بعد أن ذهبت الممرضة تحمل اسمه للزوجة. قال لها عندما سألته عن اسمه أن تقول للزوجة: جارك فؤاد... الذي أتى بك ليلة أمس إلى المستشفى.

وعادت الممرضة بعد لحظات لتطلب منه أن يتبعها. لقد وافقت

أن تستقبله. وخيّل إليه إنه لمح في عيني الزوجة ظلالاً من الحنان عندما شاهدته. وجلس بقربها على الكرسي لا يدري كيف يفتح الحديث...

سألها عن صحتها...

وسألها إن كانت تشعر بأي ألم...

وسألها... أخيراً عن موعد عودتها إلى المنزل.

وأجابت بصوت خافت:

ـ لقد قال الطبيب إن باستطاعتي العودة هذا المساء... ولكنني لن أعود سأذهب من هنا فوراً إلى بلدي، استراليا.

وقبل أن يسألها عن السبب، كانت تتابع:

ـ ولا أظن بأنك ستسألني عن سبب تصرفي هذا، بل ولا أظنك تلومني عليه...

وأجاب بصوت حاول أن يكون هادئاً:

ـ لن أسألك لأن لا حق لي بهذا السؤال... فأنا غريب عنك...

وأجابت وهي تحاول الابتسام:

ـ بعد ليلة أمس، لم تعد غريباً. لقد أنقذت حياتي.

ومرت فترة صمت كانت فيها تنظر إليه بكثير من الرقّة. ولم يستطع أن ينظر إلى عينيها خوفاً من أن تلاحظ خجله... فلقد شعر بالخجل منها بالرغم من خبرته الطويلة في عالم النساء..

وازداد خجله وحرجه عندما شعر بأنه يكاد ينسى الموضوع الذي جاء من أجله..

وحاول أن يستأنف الحديث من جديد.

وفتح فمه أكثر من مرة ليتكلم، فخانته العبارة...

وكاد ينسحب معتذراً، لولا أنه سمعها تقول:

- لقد انقذت حياتي ولكن لا تعرف حتى إسمي... ألا تريد أن تسألني عن إسمي.. سأنقذك من الإحراج. إسمي «جون»...

ووجد نفسه يهمس بعفوية «جون».

وردّت على همسه، بهمسة...

همست:

- قل إسمي مرة أخرى..

وهمس «جون».

ونسي نفسه... فمد يده يتناول يدها بين راحتيه وغرق في عينيها.

وفجأة فتح الباب ودخل مايك، الزوج.

فوجىء فؤاد...

وفوجىء مايك...

وفوجئت جون.

سحب فؤاد يده بسرعة، ثم نهض واقفاً وكأنه يستعد لمعركة. وتسمّر مايك في مكانه، وكأنه قد تلقّى صفعة.

وتكوّمت جون في فراشها وكأنها تنتظر سكيناً أخرى تخترق جسدها الجريح...

ومرّت اللحظات بطيئة... ثقيلة... صامتة. ثم فجأة، تكلّم الثلاثة في وقت واحد.

قالت الزوجة: - مايك...

وقال فؤاد: - مايك...

وقال مايك وهو ينظر إلى زوجته بحقد:

- انت...

ثم سكتوا دفعة واحدة. وحاول فؤاد أن يبدأ الحديث فخانته العبارة... واستكانت جون في فراشها، تنتظر ما سيقوله زوجها، لكن النظرة في عينيها تحوّلت من نظرة رعب... إلى نظرة احتقار، وكأنها تذكرت فجأة ان هذا الرجل، زوجها، الذي ارعبها عندما أمسك بها في وضع عاطفي مع رجل آخر، هو نفس الرجل الذي طعنها بسكين قبل ساعات، فقررت أن تهجره إلى الأبد.

وأخيراً تكلّم مايك، نظر إلى الإثنين ثم قال: آسف... لقد ازعجتكما... واستدار منسحباً من الغرفة.

لم يقفل الباب وراءه، فسمع صوت اقدامه تخبط بقسوة على أرض الرواق الخارجي.

وعندما استعاد فؤاد هدوء اعصابه انطلق راكضاً من الغرفة وهو ينادي: مايك... مايك. لكن مايك كان قد استقلّ سيارته واختفى مسرعاً بها قبل أن يدركه.

وعاد فؤاد إلى غرفة جون ليجدها تنتظره بقلق. وبدون أن يقترب منها، أو ينظر إليها بدأ يتكلم بسرعة. قال:

ـ الآن يجب ان تعودي إلى بيتك وزوجك. قبل دقائق كان الخلاف منحصراً بينك وبينه، وكنت أنا أحاول أن أصلح هذا الخلاف... أما الآن فقد أصبحت طرفاً في الخلاف، بل أصبحت سبباً في خلاف جديد... وقاطعته بحدة:

ـ لن أعود إليه... لن أعود إليه. أفضّل الموت على العودة إليه، وإلى لياليه، وإلى سكره، وإلى شذوذه...

ـ بل ستعودين إليه، أنا الآن مسؤول عن عودتك. يجب ان تعودي الآن... معي.

ـ ولكن..

وصرخ فؤاد:

ـ لا تناقشي، سأشعر بالذنب طوال حياتي إذا لم تعودي، سأشعر بأنني مسؤول عن هدم بيت... وتحطيم عائلة.

ـ فؤاد... أرجوك لا تحاول. لقد قررت أن أهجره قبل أن يحصل الحادث الأخير، ولا علاقة لما حدث بقراري.

ـ علاقة أو لا علاقة.. لا أفهم. ستعودين الآن معي. ولك مطلق الحرية في أن تهجريه غداً إذا شئت.

وعبثاً حاول. تكلم... وتكلّم. أقنع وأقنع، ولكن بدون فائدة.

وأخيراً قرّر أن يترك المنطق جانباً، ويلجأ إلى العاطفة.

اقترب منها، وجلس بجانبها، ثم أمسك بيدها، وتخيل نفسه يجلس إلى امرأة يحاول أن يوقعها في حبه...

وتقمص دوره، كعادته مع فتيات الليل، انقلب حديثه بسرعة إلى الهمس.

النظرة في عينيه تحوّلت إلى نظرة تفيض بالوله...

يدها بين يديه استكانت، يعصرها بخفة ورقة ونعومة.

همس وهو يقترب منها:

ـ أريدك أن تعودي من أجلي، من أجل الشاب الذي أنقذ حياتك، والذي هو على استعداد لأن ينقذ حياتك، ويهبك حياته... كل لحظة.

وظلّ يهمس..

وهي تستمع وكأن صوته موسيقى كمان حزينة في ليلة صيف، حتى قالت وقد انهكتها العاطفة.

ـ سأعود من أجلك أنت.

وضغطت على يده كأنها تفهمه ماذا تعني... وقبل أن يعبر لها عن فرحته بقرارها.

كانت تقول:

ـ ولكن بشرط! ونظر إليها مستغرباً...

ـ شرط؟!!

ـ نعم...

ـ وما هو؟

ـ أن تقبّلني...

وابتسم... ثم أغفى شفتيه بين شفتيها.

كرحيق الحياة تسلّلت القبلة إلى جسدها، فنهضت من فراشها وقرعت الجرس للممرضة كي تساعدها في تحضير نفسها لمغادرة المستشفى، وخرج فؤاد من الغرفة ينتظرها، وعندما خرجت بعد دقائق لم يستطع مغالبة الضحكة التي قفزت إلى شفتيه...

فلقد كانت ترتدي ثياب ممرضة...

وتذكّر فؤاد إنها حضرت إلى المستشفى بعد الحادث بلا ثياب... ووقفت تنتظره ريثما يدفع حساب المستشفى. واتكأت على ذراعه... وخرجا سوياً ليستقلا سيارة تاكسي إلى المنزل.

لم تذهب إلى زوجها، بل ذهبت إلى بيت فؤاد وتركها فؤاد هناك وتوجّه ليرى مايك. ووجد مايك يجلس وحيداً وأمامه زجاجة ويسكي نصف فارغة...

ولاستغرابه الشديد، استقبله مايك بالقبل والعناق وهو يقول: فؤاد... فؤاد يا صديقي العزيز. لقد قمت بمهمّتك على أكمل وجه... ولكنك لم تقل لي أن جون تعجبك... كامرأة! وفوجىء فؤاد... وقبل أن يجيب كان مايك يتابع:

ـ لا تشكّ للحظة بأنني غاضب منك. يكفي إنك أرحتني من هذا القيد الذي اسمه زوجة. لقد عدت حراً، طليقاً، كما

كنت. شكراً، شكراً يا صديقي. تعال، اجلس... لنشرب نخب المناسبة.

وجلس فؤاد... لا ليشرب نخب المناسبة. بل ليقول لمايك ان زوجته موجودة في بيته في الطابق الخامس... وإنها في انتظار إذنه بالعودة إلى منزلها.

وتابع:

ـ لقد اخطأت أنت بالأمس، وأخطأت هي اليوم، وأنا مسؤول كلّياً عمّا حدث اليوم. إن زوجتك تحبك، وتريد العودة إليك وإلى بيتها، ولن أشرب أي نخب إلا إذا وعدتني بإعادتها إلى المنزل..

وظلّ يتحدث إليه حتى اقتنع، وقال وهو يفرغ كأساً جديدة في جوفه، «قل لها... إنني بانتظارها».

وشرب فؤاد نخب المناسبة، ثم صعد إلى منزله ليعود برفقة جون. ودخلت جون إلى المنزل، فلم تحدث مايك بل اتجهت فوراً إلى غرفة نومها، واختفت هناك.

وشعر فؤاد بأن وجوده لم يعد ضرورياً، فاعتذر وانسحب.

وعندما دخل إلى بيته، كان يشعر بأنه كالجندي الذي يعود لتوّه من معركة قاسية.

واتجه إلى غرفة النوم... ليسرق ساعات قليلة من النوم قبل السهرة. وفي خلال لحظات كان يغيب عن الدنيا وعن كل شيء في نوم عميق.

* * *

* * *

عندما استيقظ نظر فوراً إلى ساعته فوجدها تقارب التاسعة... فنهض يرتدي ثيابه على مهل. كان يشعر بمرح لم يعهده في نفسه منذ زمن طويل... كان يختار ربطة العنق وهو يصفر. ثم يرتدي القميص وهو يغني.

ويسرّح شعره وهو في حالة تقرب من الرقص...

وأخيراً وقف أمام المرآة الطويلة في غرفة نومه يلقي على نفسه نظرة أخيرة...

وعندما اطمأنّ إلى أنه في منتهى الأناقة، ابتسم لنفسه وتوجّه نحو الباب.

وفجأة تذكر مايك وجون، فذهب إلى الشرفة ليطمئنّ عليهما.

وكم كانت دهشته كبيرة عندما شاهدهما من النافذة يجلسان معاً على الشرفة كعاشقين تعرّفا إلى بعضهما قبل ساعات...

واتسعت ابتسامته ثم غادر المنزل.

إلى أين؟

سأل فؤاد نفسه وهو يخترق شارع الحمراء بين ضجيج السيارات وزحمة الشارع.

سؤال يدور في ذهنه كل مساء وهو يخترق الشارع المزدحم...

وسؤال لا يجد له جواباً... فيترك لقدميه الحرية في قيادته. وقدماه تقودانه دائماً إلى منطقة الجامعة الأمريكية،، وتدخلان به دائماً إلى مطعم «فيصل» أو إلى «الانكل سام»... وتجلسان

به على أول مائدة يجد فيها الأصدقاء... والأصدقاء هم عادة مجموعة غريبة متناقضة من الشباب، لا يجمعهم في معظم الأحيان إلا الفراغ، وهذه الجلسة التي يملأون فراغها بالثرثرة عن كل شيء، والتوقف عند موضوعين أساسيين رئيسيين: السياسة... والمرأة.

والحديث يبدأ عادة في السياسة ويدور... ويدور من موضوع لآخر. يبدأ هادئاً ثم يحتدم ويحتدم حتى ينقلب إلى نقاش تختلط فيه الأصوات بقرقعة الصحون والطلبات التي يصرخ بها الجرسون.

وكما يبدأ هادئاً ينتهي هادئاً. يبدأ الحديث عن المرأة وقصة من هنا... ونكتة من هناك، ثم خبر مثير عن فتاة جديدة تعمل في الملهى أو البار الفلاني.

ويسكت الجميع، بينما الراوي يستمرّ في وصف الفتاة الفرنسية أو الإنجليزية أو الدانماركية أو السويدية أو... التي قابلها ليلة أمس صدفة بينما كان يلقي نظرة على البار... فدوّخها ودوّخته واسكرها واسكرته وواعدها وواعدته، وفي المستقبل سيحبّها وتحبّه.

وينتهي من رواية القصة برجاء حارّ إلى الشباب أن يبعدوا نظراتهم وزياراتهم عن البار، لأن الفتاة حقّ من حقوقه وامتياز خاص له. وتنهال الوعود كالمطر.

ولو... نحن اصدقاء وهذا اعتداء على صديق. ويطمئنّ الصديق إلى الوعود فيذهب بعد ساعة لزيارة الفتاة، ليفاجأ بجيمع الأصدقاء الذين وعدوه بعدم الاقتراب من حدود البار،

وقد جلسوا أمام الفتاة، يغازلونها... ولولا بعضاً من حياء، يشتمون صديقهم المشترك الذي عرّفهم إليها.

وليلة اثر ليلة... تتكرّر جلسات «فيصل»، و«الأنكل سام»، ويتكرّر الحديث يتكرّر قتل الفراغ على فناجين القهوة وبين اللفائف.

وفي تلك الليلة... شعر فؤاد بأنه يريد أن يبتعد عن «فيصل» و«الانكل سام».

شعر بأنه يذهب إلى هناك مرغماً.

إنه يريد أن يبتعد عن هذا الجو، جوّه في هذه الليلة. لا يشعر بأي رغبة في الاستماع إلى حديث السياسة، والمرأة.

لذلك ما إن وصل إلى باب «أنكل سام» حتى تراجع واستقل سيارة تاكسي ونزل إلى البرج.

ونزل من السيارة أمام سينما «ريفولي» فدخل فوراً ليقطع تذكرة بدون أن ينظر حتى إلى أسم الفيلم.

كان يريد أن يهرب ليغرق لمدة ساعتين في النظر إلى قصة على شاشة.

وغرق في الكرسي ينظر إلى الاعلانات على الشاشة ويكاد لا يراها وكاد بعد دقائق يعدل عن رأيه ويقرر العودة إلى أصدقائه في «فيصل»... العودة إلى قتل الفراغ بالحديث بدلاً من قتله في فيلم. وقبع في مكانه لا يستطيع أن يقرر، ولم ينقذه من الحيرة إلا إنتهاء الاعلانات وبدء الفيلم.

ونسي نفسه بعد دقائق مع حوادث الفيلم.

كان الفيلم مشوقاً جعله ينسى كل شيء. فالقصة تدور حول جريمة غامضة وقعت في نيويورك. وأفلام الجرائم كانت دائماً تنسيه كل شيء.

وبلهفة وشغف تابع حوادثه حتى النهاية، ولم يشعر إلا والأنوار تضاء... والناس يتدافعون إلى المخرج. وخرج مع الناس.

إلى أين؟

مرة ثانية في ليلة واحدة يفرض هذا السؤال نفسه عليه.

إلى البيت؟

مستحيل..

وماذا يفعل في البيت؟

ينام...

وأنّى له النوم، وقد استيقظ قبل ثلاث ساعات فقط.

يقرأ؟

فكرة مملّة بعد مشاهدة فيلم مثير.

وألغى فكرة الذهاب إلى البيت.

إلى أين؟

الحّ السؤال عليه مرة أخرى.

إلى كاباريه؟

الكاباريه بحاجة إلى أصدقاء يذهبون معه، وهو قد هجر الأصدقاء هذا المساء. فهل يذهب يجلس وحده ويشاهد

«النومرو»... أم يغرق في حديث تافه مع فتاة من الفتيات هناك...

كلاهما مملّ.

الفتاة والجلسة الوحيدة.

إذاً، لم يبق أمامه سوى الذهاب إلى بار، يغرق فيه وحدته وكبته...

وكاد ينفذ هذه الفكرة... بل لقد استوقف سيارة صعد إليها ليذهب إلى «البار»... ولكنه عاد يغيّر قراره من جديد. فالملل سيلاحقه إلى البار...

لا جديد في البار.

حتى الفتيات اللواتي يعملن في بارات المدينة قد تقادم عليهن العهد.

إلى أين؟

دوى السؤال في ذهنه.

والسائق يسير بلا هدف ينتظر إشارة أو كلمة منه.

وأخيراً قال له:

ـ اذهب إلى «الأنكل سام».

سيذهب إلى هناك ليشرب فنجاناً من القهوة ثم يقرر...

إلى أين؟

ووجد «الأنكل سام» فارغاً إلا من بعض الزبائن وقد توزّعوا على موائد متباعدة...

فجلس وحيداً وطلب فنجاناً من القهوة شربه ببطء وهو ينظر إلى الشارع الذي هدأ من السيارات والمارة.

ومع آخر رشفة من الفنجان، قرّر أن يعود إلى البيت.

سينام أو يقرأ أو يستمع إلى الراديو.

ومشى نحو البيت متمهّلاً. كان ينقل خطواته في الشارع وكأنه يجرها جراً، شعر فجأة بأنه وحيد...

طغى على قلبه حزن عميق غامض... شعر بأن حياته فارغة، شعر بأنه ضائع مع ملايين الشباب الضائعين في الشرق، يحيا بلا هدف يقضي أيامه في فراغ. شبابه ينتحر ببطء.

وعندما كان يدخل إلى المصعد لينقله إلى شقته كاد - لولا التجلّد - يبكي.

ومد يده ليضغط على زر الطابق الخامس... ولامست يده الزر، ثم هبط إلى الطابق الثالث...

سيزور صديقه مايك...

سيقضي بقية الليلة معه ومع جون... فإنهما لا ينامان قبل الثانية صباحاً. وتوقف المصعد فخرج منه.

واتجه إلى باب منزل مايك. وضغط على الجرس. وانتظر...

ثم ضغط مرة ثانية.

وسمع وقع أقدام تقترب من الباب...

ثم توقفت الأقدام.

وفتح الباب...

ورأى نفسه وجهاً لوجه أمام... جون.

وابتسمت جون في وجهه وهي تقول:

ـ أهلاً.. أهلاً فؤاد، كيف عرفت أن مايك قد سافر؟

وأجاب فؤاد:

ـ آسف... لم أكن أعرف أن مايك قد سافر، ولو عرفت لما جئت في غيابه.

وابتسمت جون ابتسامة واسعة وهي تشده من يده قائلة:

ـ تعال... أدخل... عليك أن تعتاد على غيابه.

وعبثاً حاول ان يعتذر عن الدخول، فقد أغلقت الباب وأسرعت تضيء نوراً خفيفاً في الصالون... ثم دعته إلى الجلوس.

وجلس وهو يتلفت بحذر، وكأنه يتوقع أن يدخل مايك في أية لحظة.

وبدون أن تسأله صبّت كأسين من الويسكي ناولته أحدهما وأبقت الثاني في يدها... بينما كانت يدها الأخرى تعبث في زرّ الراديو تبحث عن موسيقى تنسجم مع الجو...

الجوّ الذي أرادت أن تخلقه.

الجوّ الذي حاولت أن تجعل فؤاد يشعر من خلاله بأنه قد جاء لزيارة حبيبته.

واستقرت إبرة الراديو على محطّة أنقره...

وانسابت موسيقى لحن تانغو هادىء، خطت جون على

ايقاعها نحو فؤاد... ثم «قرعت» كأسها بكأسه وهي تقول: في صحّة الغائب...

ورفعت الكأس إلى شفتيها وجرعت جرعة كبيرة منها بنَهَم. ولاحظت ان فؤاد تمنّع عن شرب هذا «النخب»، فاقتربت منه ومدت يدها تمر بأصابعها في شعره... ثم سألته: لم لم تشرب كأس الغائب؟

وأجابها بحدة:

ـ لأن الغائب صديقي، وأنا أخجل من نفسي عندما أشعر بأنني أغتنم فرصة غياب صديق لأخونه...

وضحكت وهي تقول:

ـ ولكنك لم تخنه بعد ...

ـ يكفي أن أفكّر في خيانته ..

وتوقّفت أصابعها عن العبث بشعره، ثم قالت:

ـ إذاً... أنت تفكّر في خيانته؟

ـ أنت التي تفكّرين في خيانته ..

ـ من قال لك هذا؟

ـ المرأة عندما تريد أن تخون ليست بحاجة إلى أن تقول أي شيء.

وسكت لحظة ثم تابع:

ـ وخصوصاً إذا كان الشاب على مقدار قليل من الذكاء...

وعادت يدها تعبث بشعره وهي تهمس:

ـ وأنت، هل أنت ذكي؟

ـ قليلاً...

ـ وهل شعرت بأن من تصرفاتي ما يوحي بأنني أريد خيانة مايك...؟

ـ بدون شك...

ـ أنت شرقي معقّد.

ـ أنا شرقي صريح.

ـ لا بل معقد. فبمجرد أن استقبلتك لوحدي في بيتي ودعوتك إلى شرب كأس معي، قفزت إلى مخيّلتك فوراً صورة الخيانة!

ـ إذاً أنا أعتذر عما قلت...

ـ لا، لا تستعجل في الاعتذار، أنا لم أقل إنني لا أريد خيانة مايك...

واحتار كيف، وبماذا يجيب. لقد شعر بأنها قد نجحت في احراجه، وإنها تلعب به وبأعصابه. ولم تترك له لحظة واحدة ليفكر فيها، بل زاد اقترابها منه حتى التصقت به.

وحاول أن يتحرّك فاصطدم بها، ووجدها تمنعه حتى من الحركة، وعندما شعر بأن مقاومته قد تتلاشى... نهض فجأة من مقعده واتجه فوراً إلى الشرفة ليقف فيها وينظر إلى الشارع، ويتنفّس بعض الهواء البارد يعيد به جمع أشلاء أعصابه...

ولم تتركه... لحقت به إلى الشرفة، وشعر بها تقف خلفه، تتحداه بأنوثتها، بأنفاسها الحارة تذيب فيه... بقية المقاومة. والتفت ليجدها تقف وراءه وهي تبتسم. وفتح فمه ليتكلم،

ليطلب منها يرجوها أن تبتعد عنه... فأسكتته قبل أن يتكلّم بأن وضعت يدها على شفتيه وهي تقول:

- تعال إلى الداخل، واشرب كأسك.

ومشت أمامه فتبعها بدون مقاومة.

لقد هزم في الجولة.

وناولته الكأس فتناولها.

ورفعت الكأس إلى شفتيها وهي تهمس:

- في صحّتك...

ورفع الكأس إلى شفتيه، بدون أن يتكلم. وشربت، فشرب.

قالت له:

- أرقص معي...

فاحتواها بين ذراعيه، وكأن قوة غريبة خفية تدفعه إلى ما يفعل... ودار بها على أنغام الموسيقى التي ما زالت تنبعث من الراديو...

وألقت بخدّها على خده فترك لها خده تستند إليه. والتصقت به... فلم يقاوم. لقد استسلم لها... كلياً، وتوقفت فجأة عن الرقص، لتطفىء النور ولتغرق الغرفة في ظلام دامس.

وعبثاً جاهد فؤاد كي يعيد صورة مايك، صديقه مايك، الزوج مايك، إلى مخيلته.

عبثاً حاول أن يتسلح به، ضد هذا العدوان السافر على شبابه وأعصابه.

عبثاً حاول... فقد كانت صورة مايك تختفي وتتلاشى رويداً رويداً مع كل خطوة يخطوها في الرقصة...

وشعر بأن صورة مايك في طريقها إلى التلاشي نهائياً عندما شعر بشفتيها تبحثان عن شفتيه في الظلام...

وادار شفتيه فوقفت القبلة على خدّه... وظنْ أنها ستتوقّف عن تقبيله، فأخطأ الظنّ... وجاءت القبل كالوشوشة، كالريشة الناعمة... اختفى مايك... اختفى كلياً... وبرزت صورة جون، كما يراها بخياله، واضحة جلية.

تذكر عندما رآها لأوّل مرّة في حياته...

لقد قابلها في المصعد.

كانت قد انتقلت مع مايك إلى البناية قبل أيام...

وحيّته بابتسامة رقيقة.

وتذكّر كيف راعه جمالها ذلك اليوم...

أجنبية بيضاء كالثلج. عينان خضراوان، أنف صغير، شفتان ممتلئتان وشعر أسود فاحم كالليل...

وكم ودّ يومها لو واتته الجرآة ليسألها من أين أتت بهذا الشعر الأسود الفاحم..

إنه نادر في الغرب.

وتذكّر كيف أصبح يقابلها صدفة، مرة أو مرتين في الاسبوع. في المصعد، أمام البناية. عند البقال وهو يبتاع سجائره...

وكانت دائماً تبتسم له وتحييه، لكنهما لم يتعارفا رسمياً ولا مرة...

وتذكر كم كانت تراود خياله أحياناً عندما يعود وحيداً إلى منزله في الليل.

وتذكر كم اشتهاها...

وتذكر كيف طرد الفكرة المستحيلة من خياله.

تذكر كلّ هذا.

ثم توقف شريط الذكريات، وتذكر ـ الآن ـ إن الفكرة المستحيلة لم تعد مستحيلة.

لقد أصبحت واقعاً يلمسه هذه اللحظة بين يديه.

وتحسّس الواقع. الذي أصبح إسمه «جون». تحسّسه وكأنه يطمئن إلى وجوده.

وكأنما شعر «الواقع» بهذا الاهتمام المفاجىء به... فأثبت وجوده بأن اعاد البحث عن شفتي فؤاد، وهذه المرة وجدهما، فاستراح عندهما، وظل مستريحاً في نصف اغفاءة والموسيقى تدور، والقبلة تدور معها...

كم مضى من الوقت عليهما هكذا؟

لقد استيقظا فجأة على صوت المذيع وهو يتمنى لهما ليلة سعيدة..

لقد انتهى البرنامج.

وعاد إلى الكأس... أفرغه فؤاد في جوفه، وكأنه يتحاشى عن طريقه الحديث إلى جون...

وأفرغته هي في جوفها وكأنها تردّ على صمته... بمثله.

وتناولت كأسه الفارغة وكأسها التي شربت آخر قطرة فيها وذهبت لتملأهما من جديد...

وعادت... تناوله كأساً جديدة... ثم أضاءت النور فجأة وهي تقول:

ـ لا أريدك ان تحبّني في الظلام... أريدك أن تحبّني في النور... أنظر إلى عينيّ، لا تخفض نظرك إلى الأرض. الحبّ شيء جميل يجب أن لا تخجل منه.

عادت تتحدّاه، عادت تلعب بأعصابه.

عادت تثير شبابه...

وقرّر ان يقبل التحدي.

أن يقبل الإثارة...

فأمسك بكتفها فجأة ثم نظر إلى عينيها طويلاً...

نظر وكأنه يقول:

ـ ها أنا هنا... بكل شبابي... أنا اتحدّاك أن تصمدي أمامي... وشعرت بغريزتها كأمرأة، ماذا تعني نظرته... فاستكانت... استكانت في أنوثة إغرائية...

وغابا من جديد في قبلة طويلة...

وشربا كثيراً...

وتحدثا كثيراً...

وضحكا كثيراً...

وسألها فجأة: لماذا تريدين خيانة مايك؟

وانتفضت عند سماعها السؤال وصرخت كمن لسعتها أفعى:

ـ أرجوك أن لا تذكر هذه الكلمة مرة أخرى...

واعتذر...

وعاد يشرب ويتحدث ويضحك...

ومع اطلالة الخيط الأوّل من الفجر... كانت تتّكىء عليه، وتكاد تغفو على كتفه وهما يتّجهان نحو غرفة النوم...

وأصرت على ان تساعده في خلع ربطة عنقه و«جاكيتته»... ثم بدأت تفكّ أزرار قميصه واحداً تلو الآخر وهي تقف مع كل زرّ... لتقبله.

وركعت على الأرض تساعده على خلع حذائه.

ومنعها من الاستمرار، ثم حملها برفق بين ذراعيه والقى بها على السرير... واحنى رأسه ليقبلها... برفق.

وفجأة... رنّ جرس الباب الخارجي.

* * *

وكالمجنون قفز فؤاد وبدأ يرتدي قميصه ويحمل ربطة عنقه...

ثم ركض إلى الصالون، ولحقت به جون بعد لحظات، فأضاءت النور وأعادت بعض الترتيب إلى الصالون، ولاحظ

هو ان وجهها كان ممتقعاً ، ويديها ترتجفان، وإنها كانت تدور في الغرفة بلا هدف.

وعاد جرس الباب يلحّ في الرنين، فتوقفت عن الدوران... واستجمعت أعصابها ثم ذهبت إلى الباب، وفتحته بسرعة وكأنها تريد ان تتلقى الصدمة فجأة بدون أن يعذّبها الانتظار.

ووجدت في الباب رجلاً غريباً.

ونظر إليها الرجل باستغراب. ثم سأل، وكأنه يعتذر:

ـ آسف... أليس هذا هو الطابق الرابع؟

وأجابته بحدة: لا... ليس هذا هو الطابق الرابع. إنه الطابق الثالث. وأسرع يعتذر بشدة، قال:

ـ آسف... آسف جداً، لقد اخطأت العنوان، أرجوك أن تعذريني على هذا الإزعاج...

وقبل أن يكمل اعتذاره، كانت تقفل الباب في وجهه وهي تقول: ـ تصبح على خير.

وعادت إلى فؤاد تحاول أن تلملم أعصابها المنهارة، فوجدته قد وقف يمد لها يده مصافحاً.

وهتفت:

ـ إلى أين؟ بهدوء أجاب:

ـ إلى منزلي...

ـ إلى منزلك؟

ـ نعم... لقد أعاد إليّ رنين الجرس صوابي... لقد كان نذيراً لي.

ـ لا تكن سخيفاً... تعال معي إلى الداخل.

ـ لا، لن أعود إلى الداخل، أنا ذاهب إلى منزلي، قالها بحزم.

ـ قلت لك لا تكن سخيفاً

ولم يجب بل مدّ يده مصافحاً وهو يقول:

ـ إلى اللقاء.

ولم تصافحه بل مشت أمامه، وفتحت له الباب وانتظرته كي يخرج.

وقبل ان تقفل الباب سمعها تقول: مغفل، لن يكون بيننا لقاء بعد اليوم.

وحاول أن يبتسم، فماتت الابتسامة على شفتيه، قبل ان تظهر.

لم يستطع أن يطردها من خياله في اليوم التالي. لقد طاردته منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه، حتى اللحظة التي اقفلهما لينام بعد الغداء.

وكم مرة رفع سماعة التلفون في مكتبه ليتصل بها... ليقول لها: متى نلتقي، ثم أقفل السماعة قبل أن يدير الرقم.

وعندما عاد إلى المنزل ظهراً، قاوم الرغبة الجارفة في نفسه كي يتوقف عند الطابق الثالث ويهرع إليها.

ونام... على صورتها تملأ تفكيره.

وعندما استيقظ في المساء، كانت صورتها لا تزال هناك. وكأنها تسخر منه ومن خياله.

وجلس في شرفة المنزل يشرب فنجان القهوة... ببطء، ويقلب صورتها الساخرة.

وبعد دقائق...

استقرّ في ذهنه سؤال واحد.

لماذا تريد جون ان تخون مايك؟

هو يشعر بأنها المرة الأولى التي تخونه فيها!

هل جاء قرارها هذا بعد الحادث؟

أم أنها قرّرت فجأة بأن لا يحبها... ولذلك تريد أن تنتقم؟

وما هو الدافع الذي جعلها تتهالك على الخيانة، وكأن الخيانة ستهبها الحياة!

وسؤال آخر... لِمَ رضي هو أن يكون الأداة إلى تنفيذ خطّتها؟

كيف انقاد معها إلى النهاية، تقريباً... لولا رنين جرس الباب؟ هل كان بحاجة إلى خيانة جار له، عاهده على الصداقة!!

واكتشف أن مشكلته مع جون هي مشكلته مع كل امرأة.

مشكلته إن شبابه ورجولته وجسده... تطغى على تفكيره وعقله ومنطقه.

كم مرة وجد نفسه ينزلق في علاقة مع فتاة أو امرأة وهو يعرف أن ما يفعله خطأ...

خطأ بحق نفسه، وخطأ بحق مجتمعه، وخطأ بحق كل عرف وكل تقليد.

ولكن، أليست هذه المشكلة هي مشكلة معظم شباب الشرق تقريباً... أليست العلاقة بين الرجل والمرأة في الشرق، مشكلة المشاكل؟

هو لا يذكر في حياته كلها أنه أنشأ علاقة واحدة مع امرأة كانت خالية من العقد والمشاكل.

لا يذكر أن أي علاقة من علاقاته كانت.. طبيعية.

كل علاقاته كانت تحدث في السر، في الخفاء... في الظلام.

علاقاته كلها، كانت علاقات خائفة مرتعدة.

لا يذكر أبداً أنه مشى مع فتاة في الشارع ولم يكن خائفاً من أن يراها الناس معه.

لا يذكر إنه ذهب إلى السينما مع فتاة إلا واضطر أن يدخل معها في الظلام وينزوي في ركن بعيد عن أعين الناس.

دائماً عاش ويعيش في خوف.

إلاّ مع فتيات الليل. مع بنات «الكباريه».

هنّ فقط لا يخفن على السمعة العطرة من أن تخدش.

هنّ فقط يمشين معه في الشارع، يذهبن إلى البحر، إلى السينما، إلى أي مكان بلا خوف من أحد.

ووجد نفسه يبتعد رويداً رويداً عن فتيات بلاده ويلجأ إلى الفتيات القادمات من وراء البحار.

عندهنّ كان يجد الراحة، ولا يجد للخوف مكاناً في قلبه.

معهنّ فقط كان يجد شبابه... معهنّ فقط كان يعيش كأي شاب في الغرب.

كم مرة حاول أن يعود... أن ينسى علاقة ـ ولو بريئة ـ مع فتاة من فتيات بلاده، فيجد نفسه بعد أيام وقد غرق في سلسلة متواصلة من الأزمات النفسية.

هل تذهبين إلى السينما؟

لا.. أخاف أن يشاهدني أحد معك.

أراك اليوم؟

لست أدري إذا كنت أستطيع أن أهرب أم لا...

هالو ... نجوى موجودة؟

لا ... مش موجودة. ويقفل الصوت الخشن التلفون في وجهه وكأنه يصفعه.

أنا مدعو الليلة إلى حفلة راقصة، هل تذهبين؟

يجوز... ولكن عليّ أن أعود قبل منتصف الليل.

وألف قصة وقصة أخرى...

ويهرب من جديد إلى أقرب بار أو كباريه.

وهناك في البار أو الكباريه، يبدأ ـ من جديد ـ يجترّ لياليه.

من أجل هذا وجد نفسه ليلة أمس ينقاد مع نزوة جون. لقد أعماه كبته، فلم يقاوم.

وحتى لو حدث الليلة ما حدث بالأمس، فلن يستطيع أن يقاوم، يستطيع أن يقاوم كل شيء إلاّ ضعفه أمام المرأة.

وقرّر أن يقاوم الضعف مع جون، بضعف مع امرأة أخرى...

* * *

نهض يرتدي ثيابه ليغرق مع ليلة جديدة من لياليه.

ولم يجد كبير عناء في العثور على رفيق للسهرة.

وجده جالساً في «فيصل»، يقتل الفراغ في انتظار أية فكرة لقضاء سهرة. ولم يكن هناك أية فكرة... بالذات.

الفكرة كانت في الغرق مع الليل في سهرة بلا هدف، ولا برنامج. ومثل هذه السهرات تبدأ عادة «بكأس» عرق، ثم إلى الزيتونة عند «بنايوتي».

وهناك انضمّ إليهما رفيق ثالث شاركهما في سهرة الضياع هذه. وفي أقل من ساعة كانت نشوة العرق قد بدأت تدغدغ رؤوسهم، فارتفعت ضحكاتهم تملأ الشارع الذي يكثر فيه المارة في تلك الساعة من مطلع الليل... وكانت الضحكات تنقطع فقط عندما تمر شقراء ممتلئة على الرصيف، فيتوقف الضحك ليستبدل «بالتصفير»... أو «بالبحلقة» الجائعة إذا كانت الشقراء من النوع الذي «يبحلق» له...

ومرّت أكثر من شقراء.

وأكثر من سمراء.

وأكثر من حمراء...

وكلهنّ في طريقهن إلى علب الليل حيث يعملن. وامتزجت نشوة العرق بنشوة النظر إلى الشقراوات والسمراوات والحمراوات... وهتف فؤاد وقد لعب «المزيج» برأسه، «هلموا بنا نسفح ليلة جديدة من شبابنا».

وانطلق الموكب الثلاثي يغزو ملاهي الليل.

يتوقف في بار ليشرب كأساً... ينتقل بعده إلى بار آخر، أو يتوقف عند «كباريه» يستعرض ما يحدث فيها من الباب...

وأخيراً، وعندما أعيتهم الجولة، استقروا حول مائدة في كباريه «الكيت كات» يراقبون الاستعراض الراقص بعيون أذبلها الشرب، وأيقظتها الشهوة!

ومع دوي التصفيق الذي أعلن نهاية الاستعراض، كان فؤاد يهمس في أذن «الميتر» بكلمات قليلة...

وبعد دقائق كان «الميتر» يعود وهو يقود وراءه ثلاث فتيات من اللواتي كنّ يدرن في الحلبة على أنغام الموسيقى...

واختار فؤاد إحداهنّ. سمراء، صغيرة. تضحك باستمرار.

واحتضن رفيقه الثاني الشقراء وهو يقول: أموت... بكل أشقر.

أما الثالث، فوقف يصافح «ما تبقى» من الثلاثي وهو يقول: - أهلاً.

وتمّ التعارف.

وشرب نخب التعارف من زجاجات الشمبانيا التي أحضرها الجرسون (بدون أن يطلب منه أحد). ومع انتهاء الزجاجة الأولى كان كل واحد من «الثلاثي» يصارح رفيقته بأنها فتاة

أحلامه التي يبحث عنها منذ سنوات. وبينما كانت الفتاة تطلب الزجاجة الثانية، لم تنسَ أن ترد إلى رفيقها التحية قائلة: وأنت فارس الأحلام الذي هبط إليَّ مع الليل...

لكن هذه العواطف لم تمنع بأي حال من الأحوال التفاوض «تجارياً» وبطريقة بعيدة كل البعد عن أية عاطفة، عندما بدأ البحث في ثمن السهرة التي كانت ستستمرّ بعد إغلاق الكباريه في منزل أحدهم. ولم تعد العواطف إلى هدوئها... إلاّ عندما تمّ الاتفاق.

ولم يستطع فؤاد، بالرغم من سكره، أن يقاوم الابتسامة التي تلاعبت على شفتيه، والسمراء الصغيرة تقول له بعد أن تم الإتفاق: يا حبيبي... كم أنت لطيف!

لطيف...؟

وتحسّس محفظة نقوده كي يضمن «استمرار» اللطف لأطول فترة ممكنة. واستمرت فترة اللطف حتى مطلع الفجر...

فقد انتقلوا جميعهم إلى شقة أحدهم... وانتحى كل واحد مع رفيقته في غرفة يدفع لها ثمن كل كلمة يهمس بها، وكل قبلة ينتزعها، وكل لحظة يقضيها بجانبها. وبينما كان فؤاد يغادر الشقة، بعد أن ترك السمراء الصغيرة نائمة فيها، كان الشعور الوحيد الذي يملأ صدره هو القرف...

وتذكّر جون.

لقد نسيها منذ أن غادر منزله...

نسيها مع السمراء الصغيرة.

وها هي ذكراها تطارده مع كل خطوة يخطوها مقترباً من المنزل. وبينما كان يدير المفتاح في باب منزله، سقطت بطاقة صغيرة كانت مثبتة في الباب على الأرض... وتناولها فؤاد بلهفة. كانت البطاقة من جون...

وقرأ.

عزيزي فؤاد...

لقد استطعت أن تنقذ حياتي من ضربة سكين، لكن لم تستطع أن تمنحني الحياة بقبلة. غداً أسافر إلى أستراليا لرؤية طفلي... وقد لا أعود. وداعاً. وأتمنى لك التوفيق.

وسحق البطاقة بين يديه. ثم دخل إلى منزله وقد غرق في التفكير بجون.

يجب أن يراها..

يجب أن يقابلها...

يجب أن يجلس معها لدقائق قبل أن تسافر...

ونظر إلى ساعته، فإذا بها تقارب السابعة...

وقرّر أن يتصل بها بالتلفون

وذهب إلى التلفون...

وبينما كان يمدّ يده ليرفع السماعة، رنّ الجرس فجأة...

وأنزل يده، ووقف ينظر إلى التلفون بذهول... ورنينه لا يتوقّف.

وببطء، رفع السماعة.

ثم قرّبها من أذنه، بهدوء...

وسمعها تقول: هالو...

ولم يجب.

وعادت تقول: هالو... فؤاد؟

وتجاهل أنه قد عرف صوتها، فأجاب:

ـ نعم فؤاد.. من أنت؟

وتجاهلت سؤاله:

ـ متى عدت إلى المنزل؟

ـ منذ لحظات...

ـ هل تمتّعت بالسهرة...؟

ـ لم أتمتّع بها، لقد قتلتها...

ـ أتحب أن تقتل لياليك؟

ـ لقد أدمنت... قتلها.

ـ وتقتل أيضاً من يشاركك الليالي...؟

ـ بالعكس، أنا أقتل نفسي من أجله.

ـ لقد قتلتني... أمس!

ـ معاذ الله... يا سيدتي، أنا أقتل كل شيء إلاّ النساء الجميلات.

ـ شكراً على هذا الإطراء.

ـ إنه ليس إطراء.. إنه الحقيقة.

ـ حتى ولو كان حقيقة، فأنا أحتاج إلى من يذكرني بها دائماً...

ـ سأذكرك بها دائماً.

ـ في رسائلك؟

ـ إذن أنت مصممة نهائياً على السفر...؟

ـ كل التصميم.

ـ ومتى ستعودين...؟

ـ لن أعود، سأطلب الطلاق من مايك هناك، وأبقى مع طفلي...

ـ ولو طلبت منك العودة...

ـ سأعود، شرط أن تصبح أباً لطفلي، أنا أمقت لقب مطلقة...

ـ هذا شرط لا يقال على التلفون.

ـ أنا على استعداد لبحثه معك لو شئت...؟

ـ متى؟

ـ الآن...

ـ ليس الآن، أنا تعب، مرهق، وبحاجة ماسّة إلى النوم، الليلة لو شئت...

ـ الليلة يعود مايك...

ـ على ذكر مايك، هل أنت واثقة بأنه سيوافق على سفرك؟

ـ ولِمَ يعارض... بالنسبة له، أنا ذاهبة لرؤية طفلنا، وهي رحلة أقوم بها كل عام.

ـ والطلاق...؟

ـ سأخبره بأمره بعد وصولي...

وصمتا...

خيّل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها اللاهثة على التلفون...

وخيّل إليها أنها تكاد تسمع صوت المعركة التي تدور في رأسه وسألته:

ـ متى سأراك...

وأجاب بسرعة...

ـ الآن، سأحضر إليك.

وقالت:

ـ لا .. سأحضر أنا إليك....

وأغلقت السماعة قبل أن يعترض.

وما كاد ينهي اتصاله مع المكتب ليعتذر عن العمل بحجة المرض... حتى قرع جرس الباب.

وفتح الباب... ثم أغلقه بسرعة، خوفاًمن أن يلحظها أحد الجيران. واستقبلها بين ذراعيه. وبلهفة، وجوع، ونهم إليها... أغرق شفتيه بين شفتيها.

وأبعدها عنه بعد فترة لينظر لها، إلى وجهها، إلى عينيها، ويعود يغرق في شفتيها.

وتمتم:

ـ لن أدعك تسافرين.

ولم تجب... بل عادت تقبله بنهم، وجوع وشهوة.

ولم يشبع الجوع.

ولم تطفأ الشهوة، أو يهدأ النهم... إلاّ على سرير غرفة النوم

....

وناولها سيجارة... لم ينظر إليها، بل أشعل سيجارة له، بدأ ينفث دخانها بهدوء... بعدما هدأ ذهنه قليلاً.

يدها تداعب أصابع يده.

تحدثت إليه بأصابعها... برفق، ضغطت على يده وكأنها تقول: يا حبيبي... ثم شدّت وكأنها تقول: أحبك... كثيراً.

ثم ضغطت كثيراً لتؤكد له تأجّج حبها. وترك لها يده تحدثها. وكأنه يده تقول: أحبيني... كما تشائين. أنا لك ما دمت أنت تريدين ذلك.

ومرت دقائق ملّت فيها يدها من الحديث بدون جواب... فنادته... وقالت بصوت يكاد لا يسمع: فؤاد...

وأجاب، كمن لا يريد أن يجيب...

ـ هل تحبني؟

ـ نعم!

وكاد يضحك.

وتذكّر أن كل امرأة في حياته تسأله هذا السؤال بعد نزوة حب...

وتذكّر أن جوابه كان دائماً.. جواباً واحداً لا يتغير.

لم يجب بنعم. ولم يجب بلا..

كان يقول:

ـ طبعاً أحبك يا حبيبتي...

وأجابها كالأسطوانة:

ـ طبعاً أحبك يا حبيبتي...

ـ وهل ستحبّني في المستقبل؟

«سؤال آخر، تسأله المرأة دائماً»...

وجوابه التقليدي كان:

ـ سأحبك دائماً...

وتوقع السؤال الثالث...

السؤال الذي يقول:

ـ أنت تكذب عليَّ...

لكنها صمتت، ولم تسأل السؤال. لقد أرادت أن تحتفظ ببقيّة من كبرياء...

هي حتماً ـ فكّر فؤاد ـ ستسأله هذا السؤال في لقائهما القادم. أما الآن فقد اكتفت بأن تعرف أنه يحبها... على الأقل، لقد قال لها ذلك. وسألته:

ـ أتعيش وحدك هنا؟

ـ نعم.

ـ أليس لك أهل؟

وضحك وهو يجيب...

ـ طبعاً لي أهل، ولكنهم يسكنون في الجبل.

ـ ولِم لا يسكنون معك؟

ـ لأن والدي مزارع... ومكان المزارع هو بجانب أرضه.

ـ هل لك أخوة؟

ـ لي ثلاث شقيقات متزوجات.

وضحكت وهي تقول: فهمت الآن سر «دلعك» في بعض الأحيان، ذلك لأنك الابن الوحيد في المنزل.

واقتربت منه لتلتصق به وهي تقول:

ـ وانت لِم لم تصبح مزارعاً كوالدك؟

وأجاب، وقد قطب حاجبيه:

ـ لأن أضواء المدينة انتزعتني من المكان الذي أنتمي إليه. لقد أغرتني المدينة، فهجرت القرية والزراعة وأهلي لأعمل كموظف...

ـ وهل أنت نادم؟

وانفجر صائحاً في وجهها:

ـ ما هذا... أنت تستجوبينني؟

وقبّلته على جبينه وهي تهمس: ـ ألم أقل لك أنك طفل مدلوع، أنا لا أستجوبك... أنا أحاول أن أعرف كل ما أستطيع عن ماضيك وحاضرك.

واعتذر وهو يداعب شعرها بأصابعه:

ـ أنا آسف... لأنني صرخت في وجهك... ولكن القصة تثيرني كلما ذكرتها. طبعاً أنا نادم لأنني تركت والدي، هجرته... وجئت إلى المدينة. إن أراضينا بحاجة إلى شاب يرعاها... بعد أن تقدّم العمر بوالدي. لقد أرسلني والدي إلى الجامعة لأدرس الهندسة الزراعية كي اعود إلى القرية وارعى الأرض التي أفنى شبابه وزهرة عمره في الحدب عليها، ولكنني بدلاً من ذلك فضّلت العمل السهل النظيف في شركة أجنبية، بدلاً من التعب والعرق في أرضنا.

ـ ألا يمكنك أن تعود الآن...

ـ لقد فات الآوان... تعودت الحياة السهلة المريحة في مكتب أنيق، وتعودت حياة المدينة. لقد أدمنت الليل... وأدمنت النساء... وأدمنت الخمر. وأين الليل والنساء والخمر في قرية صغيرة نائية من قرى لبنان وإن الليل يبدأ مع مغيب الشمس، والنهار يبدأ مع بزوغها.

وصمت قليلاً فبل أن يتابع...

المرأة هناك لا رجل في حياتها إلا زوجها. في قريتنا نقتل من أجل الشرف. فهل تريديني أن أنهي حياتي شهيد رصاصة من زوج غيور أو شقيق متهوّر. لم تعرف أي شقيقة من شقيقاتي رجلاً في حياتها إلا زوجها... ولن تعرف غيره.

والخمر؟ صحيح إننا نشرب الخمر في القرية، نشرب الخمر الذي صنعناه بأيدينا من عناقيد كرومنا. نشرب لا لنسكر ونعربد، بل لننتشي بما صنعت أيدينا. مفهوم الشرب والخمر مختلف في قريتنا.

في قريتنا عار على الرجل أن يسكر ويظهر أن رأسه لا يتحمل الخمرة. كلما ذهبت إلى القرية في زيارة أشعر بتفاهتي، أشعر بصغري.

والدي الذي يستيقظ مع الفجر يتجوّل في أرضه. هذا عرق زيتون يحنو عليه، وهذه دالية يرعاها، وهذه سنبلة يتحسسها بيديه وكأنها عشيقة. والدي ملك في أرضه كأنه أمبراطور يتفقد رعيته.

وارتفع صوته وهو يكمل..

«كلما رأيته، زاد شعوري بعبوديتي، بالقيود التافهة التي تشدني إلى المدينة، بالحياة الفارغة التي أحياها، بلا هدف، بلا أي مستقبل. ومستقبل الناس في قريتي مرتبط بالأرض. مرتبط بشعورهم بقدسية هذه الأرض.

ومستقبلي وشبابي مرهون على أقدام امرأة اجنبية تهبط إلينا من الغرب تمتص دماءنا... وأموالنا وشبابنا. من أجل هذا صرخت في وجهك عندما سألتني عن أهلي... وماضي... وحاضري. أنا فخور بماضي، خجول بحاضري ـ».

وأجابته وكأنها تفكّر:

ـ أنا اعتقد بأنك تعقد الأمور أكثر مما يجب، ليس من

الضروري أن تصرخ لأن والدك مزارع، وأنت اخترت الوظيفة...

ـ أرجوك أن تفهمي موقفي على حقيقته. أنا لم أقل إنه من الضروري أن أمارس الزراعة... ولكن من الضروري أن يكون لحياتي هدف آخر غير الليل والخمر. إن لوالدي في حياته هدفاً، أما أنا فأعيش بلا هدف. هذا هو الفرق بيني وبينه، الفرق الذي يجعلني أشعر بتفاهتي...

ـ أنت لست تافهاً... أنت حبيبي.

وقبل أن يجيب كانت تغمره بقبلها وكأنها تريد أن تنسيه ماضيه وحاضره. ولم يقاوم... استجاب لدعوة النسيان... وبعد دقائق كان قد نسي كل شيء!!

* * *

عندما فتح عينيه وجدها ترتدي ثيابها.

ونظر إلى ساعته فوجد إنها تقارب الظهيرة. لقد نام طوال هذه المدة بدونها واقتربت منه لتقبله وهي تقول: بعد نصف ساعة يحضر مايك من السفر. يجب أن أكون في استقباله بالسيارة على المطار.

وتذكّر فجأة بأنها ستسافر غداً.. فأمسك بها يسألها بلهفة:

ـ وأنت هل تسافرين غداً؟

ـ نعم... قالتها بهدوء كبير.

ـ ولكن... ولكنك تحبينني؟

ـ أعرف ذلك... وسأسافر قبل أن تَمَلني.

وأجاب باندفاع...

ـ لن أملَكِ أبداً...

ـ هذا ما تشعر به الآن... ستغير رأيك بعد أسابيع.

ـ ولكن هذا مستحيل... لا يمكن أن أسمح لك بالسفر.

وتوقفت عن ارتداء ثيابها، ثم جلست على حافة السرير وقالت:

ـ استمع إليّ يا فؤاد، لقد قلت لي إن النساء في قريتكم شريفات. وأريد أن أقول لك الآن إن معظم النساء في بلادي شريفات أيضاً...

والفرق بين نساء قريتك ونساء بلادي إن نساء قريتك يفعلن ذلك تحت تهديد الخوف والرعب... والقتل أحياناً. ونحن نفعله بلا خوف ولا رعب ولا قتل.

ويجب أن تعرف الآن قبل أن أوَدّعك بأنك كنت الرجل الأول في حياتي بعد مايك. وتسألني عن السبب... لكنني أقسم لك بأنني كنت وفية لمايك منذ زواجنا. وأنا لا أنوي أن أخونه أكثر مما فعلت ما دمت لا زلت زوجته أمام الله والناس...

لذلك سأذهب إلى استراليا لأطلب الطلاق. أريد أن أصبح حرّة أمام ضميري... لا أمام الناس. أنا لا يهمني الناس بقدر ما تهمني نفسي.

إن كلام الناس لا يعذّبني. الذي يعذّبني هو كلام ضميري.

ونهضت فجأة قبل أن يلحظ دموعها ثم قالت وهي تمر بالمشط بسرعة في شعرها:

ـ لن أقول لك وداعاً... ولن أصافحك... أبق حيث أنت وكما أنت، واسمع وقع أقدامي وهي تختفي من حياتك. حظ سعيد أيها المزارع.

بذهول أستمع إليها، وبذهول نظر إليها وهي تغادر الغرفة، وبذهول أستمع إلى وقع خطواتها تختفي وتموت رويداً رويداً...

وشعر بحاجة إلى البكاء...

* * *

ويعصاه النوم.

إنه لا يعرف كيف يبكي.

منذ طفولته لا يذكر إنه بكى مرة واحدة.

وكم مرة كاد يضرب رأسه في الحائط لحاجته إلى دمعة يطفىء بها غضبه أو حزنه أو حتى فرحه.

مستحيل... مستحيل أن يبلغ حالة البكاء.

وقال له الطبيب عندما استشاره إن هناك خطأ، منذ ولادته، في تركيب شرايين الدمع في عينيه. إنه يبكي داخل عينيه، لا خارجهما.

وعرف يومها بأنه قد حكم عليه بأن يعيش حياته... بلا دموع.

كثيرون من اصدقائه الذين يعرفون قصته مع الدمع يحسدونه. يقولون له:

ـ أنت الرجل الوحيد في العالم الذي لن يبكي في حياته مهما حدث. أما هو، فقد كان على استعداد لان يتنازل عن نصف عمره ـ أحياناً ـ في سبيل دمعة.

اليوم، مثلاً، هو على استعداد لأن يضحي بأي شيء في سبيل الشعور المريح يتركه السائل الحارّ الذي يهطل من العين في ساعة حزن... أو لحظة ضياع.

واستغرب كيف يبكي على فراق امرأة لم يعرفها إلاّ منذ أيام قليلة. لقد افترق عن عشرات النساء، واستقبل الفراق بسخرية. إلا مرة واحدة عندما افترق عن حبه الأول... وكان يومها لا يزال طالباً في المدرسة الثانوية.

واليوم... وهو يفترق عن جون.

في المرة الأولى عندما سمع إن فتاته خطبت إلى قريب لها، شعر بان حياته قد انتهت، وبأن الدنيا قد توقفت وبأن الحياة لا يمكن أن تستمر.

وبعد أعوام تعلم أن يسخر من شعوره. فلقد استمرت الحياة، أزهى وأبهى وأكثر نضارة بالرغم من خطبة فتاته... واليوم، هو يعرف بأن الحياة ستستمر بالرغم من سفر جون...

لكن لا يستطيع أن يقاوم الشعور.. بالفراغ والحزن.

بعد أن تقلب بين عشرات النساء، شعر أخيراً بأنه قد وجد المرأة الوحيدة التي يستطيع أن يفتح لها قلبه، يحدثها بمنتهى

الصراحة عن شعوره وعقده، شعر بأنه يجد فيها متنفساً لأحاسيس لا يصارح بها إلا نفسه.

منذ أن كان طفلاً يلجأ إلى صدر أمه يبثها اشجانه وأحزانه وآماله وأفراحه. لم يجد بعد امرأة واحدة استطاعت أن تهبه الراحة والطمأنينة مثل جون.

وها هي اليوم تودعه وتسافر... وكأنها أشبه بالحلم القصير الحلو.

ليتها لا تسافر!!

وليته لم يقابلها.

هل يتزوّجها...؟

وكاد يتّصل بها ليطلب منها أن تعود ليتزوّجها...

لكنه عدل فوراً عن الفكرة، فهو يعرف نفسه.

ويخاف أن يكون شعوره الآن نزوة عاطفة عابرة من نزواته...

ويخاف أن تنتهي النزوة. وتكون جون قد عادت لتقترن به فتجد عواطفه قد تلاشت وانتهت مع الأيام.

خاف أن يكون شعوره ما هو إلاّ نتيجة لحظات الحبّ الرائعة التي قضاها معها قبل ساعات.

إن رائحة عطرها لا تزال تملأ مخدعه.

ولمسات أصابعها لا تزال طرّية على جسده.

وآثار قبلاتها لا تزال تعصر شفتيه.

وخاف أن يكون هذا العطر... وتلك اللمسات والقبلات هي

السبب فيما يشعر... لن يطلب منها أن تعود حتى يكون واثقاً من شعوره.

وعاوده الحنين إلى البكاء.

فنهض يغسل وجهه ليعوّض بالماء البارد عن ماء الدموع.

* * *

سافرت جون ومضى على سفرها أكثر من شهر ولم ينسها. وودّ لو أنه يعرف عنوانها كي يكتب إليها. وتردد في أن يطلب العنوان من مايك، خوفاً من أن تكون قد اخبرته بمغامراتها معه، خصوصاً أنه قد تقابل مع مايك مراراً في المصعد فحيّاه الأخير ببرود، ولم يذكر له أي شيء عن جون.

وانقضى الشهر... والاسبوع الذي تلا الشهر في محاولات فاشلة لنسيانها. لم تستطع أي فتاة أو إمرأة من اللواتي لجأ إليهنّ أن تنسيه المرأة المسافرة إلى استراليا.

وقرر ان يأخذ إجازة يقضيها في القرية مع عائلته. لعل العائلة، ومسارح طفولته، وجوّ القرية، ينسيه المرأة التي قلبت حياته.

واستقبلته والدته عندما نزل من السيارة أمام المنزل وهي لا تكاد تصدق ما تراه، فهذه هي المرة الأولى، منذ سنوات طويلة، يقضي فيها إجازة في القرية.

كان يذهب إلى القرية لليلة واحدة يهرب بعدها عائداً إلى المدينة...

وفوجيء والده به، وفرح به، ولكنه عرف بذكاء ابن القرية وفطرته أن ابنه هارب من مأزق...

وفاتحه في الأمر عندما جلس معه أمام المنزل بعد أن هجع الجميع... فانكر فؤاد أن يكون في أي مأزق...

قال إنه اشتاق لقضاء اسبوعين في القرية، فحضر.

وظهر على والده إنه لم يقتنع بما قاله، لكنه أخفى شعوره وقال: على كل حال... هذا منزلك... وأهلاً وسهلاً بك.

وقضى فؤاد اليوم الأول يتجول في القرية، يتحدث مع أهلها، مع رفاق طفولته. يقف أمام أماكن ذكرياته... يجول في الحقول.

وفي مساء شعر بأن الضغط الذي كان على صدره قد خفّ قليلاً. وبدأ يشعر بأنه قد أحسن بالهرب إلى القرية بعيداً عن ذكرياته.

وفي مساء اليوم التالي كانت أعصابه في طريقها إلى الاستقرار والهدوء لولا المخابرة التلفونية التي جاءته من بواب العمارة في بيروت...

وكان فؤاد أوصاه أن يتصل به تلفونياً إذا وصلت رسالة له من استراليا...

ووصلت رسالة من استراليا... هكذا قال البواب وهو يتحدث إليه من التلفون الوحيد الموجود في القرية...

وصباح اليوم التالي كان يترك القرية فجأة، كما حضر إليها ليهرع إلى رسالة استراليا.

كانت الرسالة منها. من جون...

رسالة هبطت عليه كالندى عندما يهبط على الزهرة.

رسالة على قصرها، فتحت أمامه باب الأمل في أن تعود يوماً ما... قالت الرسالة:

«عزيزي فؤاد...

مليون قبلة، لن أستطيع أن أصبح حرة قبل عام تقريباً، وفي خلال هذه الفترة سأبقى هنا بجانب طفلي. أنت معي دائماً..

مع حبّي...

جون».

قرأ الرسالة مرة ثم ضمّها بين راحتيه وأغمض عينيه يتذكّر كل كلمة جاءت فيها. وقرأها مرة ومرة ومرة... حتى ارتوى من كل كلمة وكل نقطة وكل حرف.

وبحث عن العنوان، عنوانها، فوجده على المغلف من الخلف.

وقرّر أن يكتب لها رسالة، يعترف فيها بأشواقه وعواطفه وحبّه وكالمراهق جلس يكتب الرسالة.

كتب: «حبيبتي جون»... ثم مزّق الورقة.

كتب: «حبيبتي جون»... ثم مزّق الورقة.

كتب «جون»... بلا حبيبتي.

و«يا حبيبتي»... ثم مزّق الورقة.

ثم عاد فكتب: «جون»... واستراح هذه المرة إلى اسمها بدون لقب. وقضى أكثر من ساعة وهو يكتب لها الرسالة، رسالة باكية، ضارعة ملتهبة.

رسالة كل سطر فيها يضج بالعاطفة. وعندما انتهى من

كتابتها، وضعها في جيبه، ثم غادر المنزل متجهاً إلى مبنى البريد ليضعها بنفسه في الصندوق...

كان خائفاً ان يسلّمها لأحد فتضيع على الطريق.

وبينما كان يخرج من المصعد تقابل مع مايك... فابتسم له.

لماذا، لا يعرف، هل كان يسخر منه، أم يسخر من نفسه. أم يسخر من الظروف؟

ونزل من السيارة أمام مبنى البريد ثم صعد الدرجات القليلة المؤدية إلى الداخل وكأنه ذاهب إلى مهمة خطيرة.

ولم يهدأ أو يستريح حتى وضع الرسالة في الصندوق. عندها فقط شعر بأنه أرسل قطعة من قلبه إلى من تستأهل هذا القلب.

وعندها فقط قرر أن يعود إلى القرية ليكمل إجازته ويعيش على أمل أن تصله رسالتها...

وبدون أن يعود إلى المنزل ركب في سيارة تاكسي وتوجّه إلى القرية. ووصل إليها وهو يكاد يطير من الفرح. ودخل إلى منزله ليجده فارغاً إلا من قريبة لأمه في التسعين من عمرها...

وعندما شاهدته ازداد بكاؤها...

و«غاص» قلبه.

شعر بأن حادثاً قد قلب هدوء منزل والده...

وهزّ العجوز يسألها عن الخبر..

فلم تجب إلا بتمتمة مبهمة فهم منها: والدك... والدك جريح في الحقل.

* * *

جريح في الحقل... دوّت الكلمة في أذنيه كالقنبلة.

جريح في الحقل... صرخ في وجه العجوز الباكية... وخنقتها العبرات، فلم تجب إلا بهزات متتابعة من رأسها... وتركها تبكي، وتهز رأسها، وانطلق يعدو إلى الحقل.

في الحقل وجد والده طريحاً على الأرض، والدم ينزف من كتفه بالرغم من الضمادات الكثيرة الملفوفة حول الجرح...

وحول والده التف فريق من المزارعين، حائرين ماذا يفعلون. ووالدته تبكي بصمت... بجانبه.

الكل حائر.

هل ينقلونه إلى المنزل.

هل يتركونه مكانه، حتى يأتي الطبيب الذي ارسلوا في طلبه من المدينة المجاورة.

وهل يأتي الطبيب؟

وماذا يفعلون بالنزيف الذي يأبى ان يتوقّف بالرغم من جميع «الوصفات» القروية التي استعملوها.

ودفع الناس جانباً، ثم ركع بجانب والده، والتقت نظراتهما...

ولمعت في عيني الوالد نظرة فرح... وكبر.

وكأنه يقول للهلعين الملتفين حوله، لقد اطمأن قلبي الآن، هذا ولدي، هذا ابني. هذا وحيدي، سيحميني بشبابه من جراحي، من كل ما سيحدث لي..

كان في كامل وعيه بالرغم من جرحه، وكأنه يأبى على هذه الأرض الذي شاهدته قوياً، عملاقاً... أن تراه ضعيفاً.. خائراً.

وخيّل إلى فؤاد انه سعيد بجرحه. سعيد بدمه النازف، سعيد بأن هذا الدم لم يذهب هدراً في غرفة عمليات، أو على فراش أبيض، وإنما ذهب ليسقي الأرض التي عاش... وقد يموت الآن من أجلها.

فالذي جرحه لعلّه حاول أن يسرق من أرضه.

لقد ضبطه وهو يحاول سرقة الزيتون، وعندما نهره وحاول أن يقبض عليه عاجله بضربة من سكين كان يحملها وهرب.

كانت هذه هي القصة التي روتها والدته في المنزل، بعد أن تم نقل والده إليه، وبعد أن حضر الطبيب الذي ارسلوا في استدعائه من المدينة المجاورة، وقال: لا خطر... تلزمه الراحة والعناية.

وقالت والدته:

ـ إن اللص لو جاء إلى الحقل يطلب زيتوناً بدون سرقة، لكان والده أعطاه، فهو لم يرفض سائلاً طرق باب منزله، أو جاءه طالباً إلى حقله. لكنه يرفض بعناد أن يسمح لأي كان أن يسطو على حقله. إن الذي يسطو على حقله كمن يسطو على حياته وعرضه. فحقله... هو عرضه.. وحياته.

وعندما ذهب الناس، ولم يبق في المنزل إلاّ بعض الأقرباء، وجلس فؤاد بقرب سرير والده، سأله والده:

ـ ماذا قال الطبيب؟

ـ لا شيء. يلزمك بعض الراحة.

ـ الراحة؟

ارتفع صوته:

ـ ومن ينتبه للحقل، نحن في موسم الزيتون... الزيتون بحاجة إلى رعاية. ورفع عينيه إلى فؤاد كأنما يستنجد به.

ـ من يرعى الزيتون يا فؤاد؟

عاد يلحّ في السؤال...

وأجاب فؤاد:

ـ سأرعاه أنا يا والدي... ومن يرعاه غير ابنك.

ومدّ والده يده المعروقة، فأمسك بيد فؤاد... وشدّ عليها شاكراً. ولم يتكلّم.

ونظر إليه فؤاد ليرى دمعة وحيدة تترقرق على وجهه المجهد.

لقد عاد ابنه أخيراً، إلى حيث أراده أن يكون منذ البداية. إلى الحقل... الزيتون، لن ترعاه أيد غريبة. سترعاه يَدًا وحيده...

وتركه وحيده... لينام. لينال بعض الراحة بعد عناء النهار.

أيقظته أمّه مع الفجر، فالناس في القرية لا ينامون بعد الفجر... ودخل إلى غرفة والده ليقبل يده قبل أن يذهب إلى الحقل ليحتلّ مكانه... كان الأب جالساً في فراشه يدخن غليونه الطويل بهدوء... وبعفوية تقدم منه فؤاد وأمسك بيده محاولاً تقبيلها...

وسحب الأب يده بسرعة.

لقد استغرب هذه الحركة.

فمنذ أكثر من خمسة أعوام لم يقبّل فؤاد يده...

لقد منعه من تقبيل يده منذ أن أصبح شاباً يعمل...

وقال الأب: ـ معاذ الله يا ولدي... أنت الآن مثل شقيقي...

ـ أنا أفضل أن أبقى ولدك، وقد جئت أقبل يدك مستغفراً ونادماً عن السنوات الطوال التي كدت أنساك فيها، وأنسى والدتي، وأنسى القرية التي انجبتني...

ـ لا، لا تعتذر، لقد كنت واثقاً بأنك ستعود إلينا ذات يوم. إن الدم لا يصبح ماء، وإن نسيتنا أنت فنحن لن ننساك.

وجلس فؤاد بجانب والده ليشرب القهوة. وطافا معاً بذكريات طفولته يوم كان يذهب إلى الحقل مع والده كل صباح في الإجازات.

كان يومها يحبّ الحقل.

يحب الهواء الطلق.

يحب الشمس، يحب أن يشاهد والده يشرف علي العمال في الحقل، وسرقهما الوقت، حتى غمرت الشمس أرجاء الغرفة فنهض فؤاد قائلاً:

ـ لقد تأخرت... أنا ذاهب إلى حقل الزيتون.

ووجد أنه بالفعل قد تأخر. فقد كانت النسوة اللواتي يقطفن الزيتون قد بدأن بالعمل منذ أكثر من ساعة.

وطاف بينهن، وهنّ يرحبن به قائلات:

ـ أهلاً بابن «أبو فؤاد».

كان هذا لقبه في القرية... «ابن أبو فؤاد». كلهنّ يعرفن «أبو فؤاد» ويحببن «أبو فؤاد».

وسألنه عن والده. عن صحّته هذا الصباح.

قلن له: إن الحقل يبدو فارغاً بدونه.

لقد كان يملأه بنشاطه وهمّته التي لا تعرف الكلل. بل لقد كان يساعدهن في العمل، من باب حب العمل فقط.

واكتشف فؤاد بعد ساعة من الزمن بأنه لا ولن يستطيع أن يحل مكان والده. إنه غريب عن هذه الأرض. لقد سرقته المدينة. ولن تعيده إلى القرية...

لقد شعر بأنّ العمل يمكن أن يستمر بدونه، بدون وجوده بالمرة. ولكنه لا يمكن ان يستمر بدون وجود والده.

واكتفى في النهاية من العمل بأن يجلس في ظل زيتونة كان يحبها منذ طفولته... وأن يراقب العمل من بعيد.

وسرح بذكرياته إلى الماضي.

إلى ماضيه في القرية.

طفولته، صباه، مطلع شبابه.

ذكريات كاد أن ينسى معظمها.

ذكريات دراسته، وكيف كان يمشي كل يوم مع رفاق له إلى المدرسة في المدينة، في طرابلس.

وكيف كان يعود كل مساء مارّاً بالحقول.

وكيف كان يعتبر نفسه دائماً من طبقة أعلى من طبقة الأطفال الذين يذهبون معه إلى المدرسة.

لقد كان والده «ملاكاً». كان يعتبر إبن غني في القرية. وكان معظم آباء رفاقه من العمال.

وكيف ولّد هذا الفارق عقدة في نفوس رفاقه ضدّه. كانوا يتحاشون اللعب معه أو الاختلاط به.

وتذكّر كيف كان يقضي امسياته وحده في المنزل يقرأ، بعيداً عن رفاقه. لقد كان غريباً عن القرية، منذ ولادته.

حتى أولئك الذين كانوا يدّعون صداقته من أطفال القرية كانوا لا يفتحون قلوبهم له. لا يوشوشون له بأسرارهم، لا يثقون به.

ثم كبر..

وكبرت الهوّة بينه وبين رفاقه.

واتسعت الهوة تماماً، وابتلعت كل علاقة عندما ذهب إلى الجامعة.

واليوم عندما يأتي إلى القرية يتمنى أن يجلس مع احدهم، يقابله، يتحدث معه، يعرف أخباره.

إنه يعرف أخبارهم عن طريق والدته. فلان هاجر إلى البرازيل.

فلان لم يكمل دراسته.

فلان تزوج وانجب نصف «دستة» أطفال.

وفلانة...

سعاد!

وابتسم عندما ذكرت سعاد.

حبه الأول.

حب صباه.

حب أيامه الحلوة الأولى.

يوم كان يجد الدنيا كلها من خلال نظرة من عينيها السوداوين.

يوم كان ينتظر مرورها كل يوم من أمام المنزل، وهي ذاهبة إلى الحقل لترسل الأكل إلى والدها.

سعاد...

قالت له والدته تزوجت...

ثم تابعت:

ـ مسكينة سعاد ترملت بعد عام. مرض زوجها ومات تاركاً إياها مع طفل رضيع. والحّ في السؤال عن سعاد. فتوقفت والدته عن الكلام.

قالت له وهي تذهب إلى المطبخ بعد أن شمّت رائحة الطبخة تحترق: وماذا تريد من سعاد، هل تريد أن تتزوجها؟

يتزوّجها؟

لا... ولكنه يحبّ أن يراها...

هل تغيرت؟

هل لا زالت تبتسم كلّما تراه؟

هل ترهّل جسدها؟

هل... هل... هل...

وقرّر أن يراها، بأية طريقة. سيطلب من والدته أن تدعوها إلى زيارتها الليلة.

ونهض لتناول طعام الغداء... وليطلب من والدته أن يرى سعاد.

* * *

... وانتظر حتى انتهى من تناول طعام الغداء، وجلس مع والدته في الظل أمام المنزل يرشفان بهدوء فناجين القهوة... ثم سألها عن سعاد. كانت والدته تروي له أخبار مبعثرة عن القرية عندما قال:

ـ لقد ذكرت كل الناس إلا «سعاد».

ـ سعاد؟

أجابت والدته باستغراب.

ـ سعاد... بخير.

وعاد يسأل:

ـ وهل تأتي لزيارتنا...؟

ـ كانت تأتي كل يوم، ولكنني لم أرَها منذ أن حضرت.

ـ إذن هي تتهرب من مقابلتي...؟

ـ لا أظن إنها تتهرب. وإنما اعتقد إنها تخجل من مقابلتك.

ـ تخجل...؟ وهل في رؤيتي ما يخجل؟

ـ لا، ولكن الدنيا تغيرت. لقد تغيرت انت. كبرت، أصبحت رجلاً، وكبرت سعاد وتغيرت، وأصبحت امرأة...، امرأة مات زوجها، أرملة، ولقاؤكما في القرية قد يثير الهمسات...

وضحك فؤاد، وهو يحتضن أمه، ويغمرها بقبلاته ثم يقول:

ـ لست أدري ماذا سيحدث للقرية لو توقف الهمس. أعتقد أن نصف أهلها سيهاجرون. إنهم يعيشون على الهمسات والاشاعات..

وأجابت أمّه وهي لا تزال تنظر إلى عينيه:

ـ لا تلمهم... إنها تسليتهم الوحيدة. هذا إذا استثنيت تسلية إنجاب الأولاد...

وضحكا معاً، ثم نهضت أمه بعد أن سمعت نداء زوجها، وتبعها فؤاد إلى غرفة والده، الذي كان قد استيقظ من القيلولة لتوّه... وجلسوا معاً يتحدّثون كما كانوا يفعلون قبل أعوام.

وبلهفة سأله والده عن الحقل. سأله عن كل عامل... وكل غرسة، وكل كرمة، وكل غصن وحجر تقريباً... وطمأنه فؤاد بأن الحقل بخير، والعمل بخير، لا ينقصه إلا وجوده هناك. قال له إن وجوده ضرورة، ولن يعوّض أحد حتى هو عن غيابه.

وشاعت ابتسامة رضى وطمأنينة على وجه الأب... لقد ارضى كلام ولده غروره. وكل غروره كان ينحصر بعلاقته بالأرض. وتركتهما الوالدة لتغيب لمدة دقائق عادت بعدها لتقول لفؤاد وهي تبتسم:

ـ هناك ضيف بانتظارك في الخارج...

ـ ضيف؟

رفع فؤاد حاجبيه مستغرباً.

ـ نعم... ضيف عزيز.

وخرج فؤاد ليفاجأ بسعاد تجلس في غرفة الجلوس... بانتظاره.

وهتف مرحباً...

ـ سعاد؟

ولم ترفع عينيها إليه... بل ردّت وحمرة الخجل تعلو وجهها.

ـ اهلاً... معلّمي فؤاد.

معلّمي؟!!

كان وقع الكلمة غريباً على أذنيه.

معلّمي؟!!

كلمة عَبّرت عن الهوّة السحيقة التي كانت تفصل بينهما.. منذ رآها لآخر مرة قبل أعوام طويلة.

واقترب يجلس بجانبها، وقد تلعثم كمراهق يقابل المرأة لأول مرة... وهو الذي كان «يلعثم» كل امرأة قابلها.

لقد جسّدت له في لحظة كل صباه. صباه المتعثّر... صباه الذي كان ينساه في حمى الحياة التي يعيشها...

واستطاع بعد دقائق من الصمت أن يغتصب الكلمات من بين شفتيه ليقول:

- كيف حالك؟

وأجابت بصوت خفيض:

- بخير.. وأنت؟

- في شوق إليك... ولذلك طلبت من والدتي أن أراك.

وانخفض صوتها أكثر فأكثر حتى كاد لا يسمع، وهي تقول:

- وأنا أيضاً «اشتقتلك»..

وتأمّلها فؤاد.

توقّف عن الحديث لينظر إليها وهي مخفضة البصر إلى الأرض.

كانت لا تزال جميلة.

جميلة، جمال القرية.

لم تغيّرها الأيام.

لم تترهّل.

لم تترك الأيام على وجهها إلاّ لمسات من الحزن.

وشعرت هي بأنه يتأمّلها، فعادت الحمرة تكسو وجهها، وتألق جمالها... خُيّل إليه إنها عادت الشابة الصغيرة اليافعة التي كان يعرفها.

وبحركة لا شعورية مدّ يده ليحتضن يدها...

فأجفلت وسحبت يدها بسرعة.

وتذكّر فؤاد انه في القريةِ وأن ما فعله يكاد يعتبر.. جريمة، فتدارك نفسه وابتعد قليلاً عنها، وجلسا يتحدثان.

حديث كله ذكريات.

ذكريات عن كل شيء، حتى عن اليوم الذي ضربته سعاد، فذهب يشتكي إلى أمه، التي قالت له: أريد أن أعرف من منكما الرجل... أنت أم هي؟

وكيف انتظر فؤاد حتى كبر ليأخذ بثأره، فضربها ثم قبّلها في عينيها، وهو يعتذر.

وكيف شبّا وكبرا...

وكيف أصبح لا يستطيع تقبيلها في عينيها، لأنّها كبرت... ولأنّها أصبحت شابة.

وسرقهما الوقت... في حديث الذكريات، ولم ينتبه إلا على صوت والده يناديه ليعود إلى الحقل، فهم بحاجة إليه هناك.

ونهض فؤاد ليذهب إلى الحقل...

ونهضت سعاد لتعود إلى منزلها... ومدّت يدها تصافحه.

وبقيت يدها في يده، وهو يقول:

ـ أحب أن أراك كل يوم...

ـ إذا استطعت.

ـ حاولي...

ـ سأحاول..

وانسحبت في حياء. وذهب فؤاد إلى الحقل.

في الحقل استمرّ في الحديث، حديث ذكرياته.

كان يحدّث نفسه وكأنه يحدّث سعاد.

لقد أعادت مقابلته لسعاد إلى نفسه بعض البراءة، بعض العذرية، وبعض الحياء، وكلها أشياء كان قد تركها في القرية منذ أن غادرها.

أعادت إلى نفسه شعوراً مبهماً بأن الخير والصدق قيمة لا زالت موجودة في العالم.

عاد إلى نفسه يحاسبها على الحياة التي تحياها..

سأل نفسه: هل هو فعلاً يحيا...؟

ماذا فعل بحياته حتى الآن...؟

إنه لا يحيا... إنه ينتحر.

ينتحر كل يوم، كل ساعة، كل لحظة.

إنه يؤلف وحدة صغيرة... من مجموع الوحدات التافهة.

إنه أحد آلاف بل وملايين الضائعين في الشرق.

إنه رقم صغير، بين ملايين الأرقام. إنه ليس أكثر من رقم.

رقم صغير...

رقم لا يتميز بشيء...

قد يحذف غداً.

قد يزول، بدون أن يؤثر ولو قليلاً على المجموع.

ففي كل يوم يولد ألف رقم... يحلّ مكانه. ألف رقم صغير، وألف رقم تافه!

لو سأله أي إنسان غداً، من أنت؟ لما عرف كيف يجيب، وبماذا يجيب. إنه يهدر جميع طاقاته البشرية والإنسانية على أشياء لا تمتّ إلى الإنسانية بصلة. إنه، على العكس، يعيق طاقات أمّته البشرية والإنسانية.

إنه برقمه الصغير، وحشر نفسه بين المجموعة، يعيق تقدم هذه المجموعة.

إن أمثاله يعيشون، كي يضرّوا أنفسهم ويلحقوا الضرر بغيرهم...

وقسا على نفسه في الحساب.

وأهوى على نفسه تحطيماً حتى مرغّها في التراب.

وعندما هبط المساء، وبدأ العمال والعاملات يلملمون حاجاتهم استعداداً للعودة إلى منازلهم، شعر وهو يراهم يغادرون الحقل بأنهم أنفع منه لمجتمعهم.

شعر بأنه تافه... أمامهم.

وغرق في أفكاره حتى انتشر الظلام وبقي وحيداً في الحقل.

ونهض يمشي على مهل في اتجاه القرية.

كل شيء هاجع، حتى الحقول بدت وكأنها تغفو في أحضان الجبل. ومشى يستمع إلى وقع خطواته، تختلط بالضجيج في ذهنه.

وظل يمشي، حتى سمع وقع خطوات تمشي أمامه وانتبه إلى أنه قد بدأ يدخل القرية.

ونظر إلى صاحب الخطوات الذي كان يمشي بسرعة أمامه. كان صاحب الخطوات... فتاة، ووجد نفسه يسرع خلفها، بلا شعور. وكأنه يمثل دوره في الحياة، يسرع خلف أي فتاة أو امرأة. ولحق بها. والتفتت عندما اقترب منها.

ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام سعاد.

مفاجأة غريبة ـ سأل نفسه ـ أم مفاجأة مقصودة؟

هل تعمّدت سعاد أن تقابله في الظلام عند مشارف القرية؟ أم إنها هي أيضاً كانت عائدة من الحقل...

ونسي السؤال في غمرة الفرح الذي اعتراه.

وحيّته بابتسامة.

لم تقل له «معلّمي» فؤاد. بل حيّته باسمه...

واختصرت بكلمة واحدة الهوّة التي كانت تفصل بينهما، وأسرع وهو يخفي بل ويطمر الهوّة نهائياً فاحتواها بين ذراعيه...

ولم تحاول أن تهرب، بل استكانت إليه كطفل خائف، وبحث بشفتيه عن شفتيها... فرفعت رأسها لتساعده في العثور عليهما وفوجىء بالدموع تملأ عينيها...

فارتفع بشفتيه ليقبّل عينيها، كما فعل وهو طفل...

* * *

بلّل الدمع وجهه وشفتاه.

وأعاد الدمع الحار إلى قلبه ذكريات طفولته. فعاش في طفولته... نسي شبابه ونسي أنه ترك القرية في يوم من الأيام، ولم يذكر إلا إنه هنا... يقف مع سعاد يتلقّى دموعها بشفتيه.

وكلّما حاول ان يسألها عن سبب بكائها، كلّما ازدادت بكاء...

وكلّما ألحّ في السؤال، كلما ازداد التصاقها به... وكأنها تحتمي بصدره من دموعها، من أفكارها ومن نفسها.

ولم تحاول سعاد أن تهرب من أفكارها.

وما هي أفكارها؟...

ولم تبك سعاد؟

اسئلة ظلت تطارد فؤاد وهو يداعب برفق شعر سعاد الطويل... وخنق الأسئلة حتى هدأت... واستكانت... وجفّ الدمع في عينيها، وبدأت تعتذر عما بدر منها.

ـ لا تعتذري... فقط اخبريني عن دموعك.

وشعر بأنها تقاوم بصلابة كي لا تعود إلى البكاء... وهي تجيب:

ـ لم يبق لي في حياتي سوى الدمع ألجأ إليه.

ـ ولكن...

ـ أرجوك لا تقاطعني لقد انتظرتك هنا الليلة كي افرغ ما في قلبي من حديث، ولم أجد في القرية كلها من أتحدث إليه،

حتى أتيت أنت. فشعرت أنك ستفهمني... شعرت بأنني استطيع أن أتحدث إليك وكأني أحدّث نفسي!

وحدثته وكأنها تحدّث نفسها...

ووجد نفسه بعد دقائق وجهاً لوجه أمام مأساة.

مأساة من نوع جديد...

مأساة فتاة تزوجت وهي في التاسعة عشرة من عمرها. وفقدت زوجها في العشرين، تاركاً لها طفلة تحبو... وذكريات أشهر من السعادة.

ومنذ اللحظة التي غاب فيها زوجها بدأت مأساة حياتها. فهي لم تعد فتاة كما كانت في السابق...

ولم تعد امرأة متزوجة كما عاشت لمدة عام...

إنها لا تستطيع أن تعيش حياة فتاة...

ومن المستحيل أن تعيش حياة امرأة...

إنها أرملة!...

أرملة في القرية تعني: أن تموت وهي لا تزال على قيد الحياة... لو تكلمت مع شاب، أو ابتسمت له، قالوا: عاهرة!

ولو تزوّجت، قالوا: لم تعش من أجل طفلتها، ولا من أجل ذكرى زوجها...

ولو عاشت كفتاة، ونسيت إنها تزوجت في يوم من الأيام، قالوا: يا عيب الشوم! ماذا تركت للفتيات.

وهي تعيش في هذه الدوامة. أو بالأحرى تموت في هذه

الدوامة. تكاد تجنّ كلما فكرت في أن عليها أن تعيش طوال حياتها... كعذراء!

إن غيرها من الفتيات ينتظرن عاماً أو إثنين حتى يتزوّجن ويعشن بعدها حياة طبيعية.

أما هي، فقد أخذت نصيبها من الزواج، وكان النصيب قصيراً أقصر من عمر الورود...

حتى لو شاءت أن تهرب... فلن تستطيع.

وإلى أين تهرب بنت القرية؟

تذهب إلى المدينة لتعمل خادمة...

أو على الأكثر راقصة في ملهى حقير...

وهل يسمحون لها بالهرب؟

ألن يلحقوا بها كما لحقوا بصديقتها ليلى قبل عامين وقتلوها في وضح النهار، وفي الشارع العام...؟

والأقسى من هذا كله إن عليها أن تعيش مع أهل زوجها.

هكذا تقول العادات... فطفلتها يجب أن تعيش في منزل المرحوم. وأهل زوجها بالرغم من إصرارهم على بقائها مع الطفلة معهم... وتظاهرهم بمحافظتهم على التقاليد والعادات، فهم لا يستطيعون رؤية وجهها للحظة واحدة.

يتمنون لو ماتت مع ابنهم. إنهم يعتقدون بأنها المسؤولة عن موت ابنهم، «قدمها» على منزلهم كان فألاً سيئاً، تسبب في وفاة ولدهم. لولاها، ولولا فألها السيىء، لما توفي ابنهم.

هي تشعر بأنهم يكرهونها. ينظرون إليها بحقد. يتمنّون لو كانت هي التي دُفنت بدلاً من ابنهم.

ولذلك فهم يغتمون الفرصة كي ينتقموا منها. إذا تحركت ثارت ثائرتهم. إذا بكت امعنوا في تعذيبها. إذا شكت أخرسوها...

وباختصار، قالت وقد عاد الدمع يملأ وجهها:

ـ لو عرفت كيف أنتحر لانتحرت..

وحار فؤاد كيف يجيبها، وبماذا يجيبها...

هل يطلب منها ان تحتمل هذا العذاب، وهذه الحياة، وهو يعرف استحالة هذا الطلب...

أم يطلب منها ان تثور على هذا العذاب وهذه الحياة، وهو يعرف إنه قد يعرض كل مصيرها وحياتها للخطر... وكعادته، دائماً، أمام كل موقف دقيق مع امرأة، وجد نفسه يعوّض عن الحديث والمنطق، بلغة أخرى يتقنها، لغة الجسد...

أخذ سعاد بين ذراعيه، فتهاوت بين ذراعيه كعصفور صغير بلله المطر...

ونسي ذكريات طفولته وصباه.

ونسي دموعها التي بدأت تتساقط على شفتيه.

وتذكّر فقط إنه رجل مع امرأة جائعة إلى الحب... وإن همّه أرواء ذلك الجوع. واختصر في دقائق علاج مأساتها...

لقد أعاد إليها الشعور بأنها امرأة... وأنها حرّة ان تتصرّف كامرأة ولو مرة واحدة...

وعندما تركته بعد نصف ساعة لتعود وحدها إلى القرية... لاحظ إن الدموع قد جفت من مآقيها، وأن صدرها قد ارتفع... وإنها تمشي بفرح. وانتظر حتى اختفت عن ناظريه، وابتعلتها العتمة، ثم بدأ يمشي نحو المنزل وهو يشعر بأنه قد أدّى خدمة كبرى نحو إنسان ضغيف.

بقي لمدّة اسبوع في القرية لم يشاهد خلالها سعاد...

لقد اختفت مرة اخرى.

عادت إلى السجن الكبير الذي تعيش فيه.

هل عادت برضاها...؟

أم عادت مجبرة...؟

هل ندمت على انزلاقها معه، متحدّية بذلك التقاليد التي عاشت في ظلها منذ طفولتها...

أم أنها خافت أن تنزلق مرة أخرى، فتدمن على الإنزلاق وتنزلق غداً مع غيره عندما يعود إلى المدينة...؟

ظلت هذه الأسئلة تراوده وهو في السيارة عائداً من القرية.

ولم ينسها إلا صباح اليوم التالي عندما وصلته رسالة من جون.

لقد أجابت علي رسالته، برسالة طويلة بدأتها بقولها: «أرجو أن لا تكون نادماً على رسالتك إليّ، وارجو أن لا تكون قد

تسرعت في الكتابة إليّ... لقد خيّل إليّ وأنا أقرأ رسالتك أن حبك أكثر مما أستحق، وأكثر مما تستحق علاقتنا...

لا يمكن أن تكون قد أحببتني بهذه القوة وهذا العنف وأنت لم تعرفني إلا لأيام. على كل حال، سأصدقك، حتى ولو كنت كاذباً، لأنني أريد أن أصدقك، فأنا أعيش هذه الأيام على حبك»...

وقرأ الرسالة مراراً.

وهو يتمتّع بكل حرف جاء فيها، خصوصاً العبارة التي تقول: «سأصدقك... لأني أريد أن أصدقك... فأنا أعيش على حبك هذه الأيام...»

وأجاب على رسالتها.

كتب يقول:

«لقد أحببتك، رغم الفترة القصيرة التي عرفتك فيها... ويجب أن تعرفي أن الحب لا يقاس بعدد الأيام التي يعيشها الإنسان مع من يحب، بل بقوة الشعور الذي يشعره المرء تجاه من يحب حتى ولو قابله للحظات.

لقد كنت في حياتي لأعوام طويلة، حتى قبل ان نلتقي، كنت في خيالي حلماً من الأحلام. كنت المرأة التي أتمنى أن ألقى، وإن أحب، حتى قبل أن ألقاك. وعندما تقابلنا شعرت بأنني قضيت طوال هذه الأعوام بجانبك».

ولم يستطع وهو يضع الرسالة في صندوق البريد، من ان يطرد السؤال الذي طرأ على تفكيره فجأة...

سؤال يقول: هل عنى ما كتب إليها، أم أنه كان يكذب على نفسه وعليها...

ومع ذلك، ومع أن الجواب على سؤاله ظل مبهماً حائراً، فقد شعر، كما شعر عندما أعطى دقائق الحب لسعاد، بأنه قد أدى خدمة كبرى إلى إنسان ضعيف...

وشعر أيضاً بأنه لم يعد، ولو ليوم أو يومين، ذلك الإنسان التافه، ذلك الرقم الصغير، الذي يعيش لنفسه فقط، ويعيش ضمن الملايين بدون أن ينفرد عن الملايين بشيء.

لقد شعر بأنه قد أدى خدمة، لأناس كانوا بحاجة إلى مساعدة. وبسخرية، فكر في أن يقضي بقية عمره في أسداء مثل هذه الخدمات كي يشعر أن لحياته معنى وقيمة.

وظلت الفكرة الساخرة تداعب خياله وهو يغفو بعد الغداء تمهيداً لسهرة طويلة، حن إليها، واشتاق، بعد الأيام التي قضاها كالراهب في القرية... ولكنه لم يستطع أن ينفذ قراره، فقد استيقظ من النوم على رنين جرس التلفون.

كان التلفون من القرية...

وجاءه أن جرح والده الذي كان قد التأم، وشفي منه، قد عاد فانتكس لأن والده عاد إلى العمل في الحقل مخالفاً نصيحة الأطباء... وأنهم سينقلونه الليلة إلى المستشفى في بيروت... وإن عليه أن يحجز له مكاناً في المستشفى.

* * *

ويقضي الليل بطوله مع أمه أمام غرفة العمليات في المستشفى.

فلقد وصل والده وقرر الطبيب إنه بحاجة مستعجلة إلى عملية جراحية في ذراعه..

ولم يعد إلى المنزل برفقة والدته إلا بعد أن طمأنهما الطبيب إلى إنه بخير. وكانت هذه المرة الثانية التي تزوره فيها أمه في بيته.

فلقد كان من النادر أن تحضر من القرية، أما والده فلقد كان يتردد عليه باستمرار، لشراء البذار والمواد اللازمة للحقل.

وكما فعلت في المرة الأولى عندما زارته، فعلت هذه المرة.

فلقد هالتها الفوضى المنتشرة في كل مكان، فنسيت تعبها، ونسيت إنها لم تنم لحظة واحدة طوال الليل. وانطلقت تبعث بعض النظام في الشقة.

وعبثاً حاول أن يعترض، وعبثاً حاول أن يقنعها بأن تؤجل عملية النظام إلى ما بعد، ولكن بلا فائدة.

قالت له:

ـ أنا لا أستطيع أن أنام في منزل... يشبه الشارع.

وغلبه النعاس فذهب لينام، وهي لا تزال تدور في غرفة الشقة، تنظمها، وتشتم الفوضى، والخدم... وحياة «العزاب»!

واستيقظ من نومه عند الظهر، ليجدها تنام إلى جانبه. تماماً كما كانت تفعل وهو طفل صغير..

كانت تصر على أن تنام بجانبه كل ليلة، تحتضنه وكأنها تحميه.. وتصر على أن يكون وجهه أول وجه تراه، وتقبله مع الفجر...

وغمره دفق من الحنان، فاقترب منها يطبع على جبينها قبلة خاشعة وهو يتمتم: حرسك الله.

وكأنما مسها سحر من قبلته، فاستيقظت وما إن شاهدته حتى احتوته بين ذراعيها وهي تدعو الله أن يحميه ويحفظه...

ونهضت بسرعة لتغلي له القهوة.

وتبعها إلى المطبخ، وراقبها وهي تصنع القهوة بيدين خبيرتين، وحمل صينية القهوة بعد أن نضجت وذهب ليشربها معها على مهل في الصالون...

وطوال الفترة التي جلسها معها، وطوال الطريق من المنزل إلى المستشفى لم تتوقف عن طرح الأسئلة عليه حول حياته في المدينة... أين يأكل، كيف ينام، من يغسل له ثيابه، من... من... كيف...

وهو يجيبها على كل سؤال، ويكذب عليها في كل جواب..

لقد جعلها تشعر بأنه يعيش نفس الحياة التي يحياها في القرية.

ينام باكراً، ويصحو باكراً. يأكل بنظام، ويعمل بنظام...

وما إن أطمأنت عليه حتى كانا قد وصلا المستشفى. فبدأت توجه اسئلتها إلى الطبيب، وتلحّ في معرفة التفاصيل.

قال الطبيب: إن زوجها سيخرج من المستشفى بعد اسبوع. لكن عليه أن يستريح راحة تامة لمدة شهر على الأقل... وسمح لهما في النهاية أن يدخلا لزيارته.

ووجداه نائماً من تأثير «البنج» فجلسا في الغرفة ينتظرانه حتى

فتح عينيه. فابتسم لما رآهما... وكان أول سؤال سأله: متى أخرج من المشتشفى؟

واتسعت ابتسامته عندما علم بأنه لن يبقى أكثر من أسبوع.

ولم يخبراه بما قاله الطبيب، عن شهر الراحة، فهما يعرفان بأنه يريد أن يعود إلى الحقل فور خروجه من المستشفى.

قضى فؤاد الأسبوع الذي بقي فيه والده في المستشفى وهو يحيا حياة هادئة مع والدته.

يذهب إلى عمله في الصباح، ويعود ظهراً ليجد أمه قد دخلت في عدة معارك متفرقة مع الخادمة. يتناولا طعام الغداء، وينام قليلاً ثم يذهب إلى زيارة والده، ويبقى هناك حتى الثامنة مساء... ليعود مرة ثانية إلى المنزل، فيقرأ قليلاً، ويتعشى، ثم يقرأ من جديد وينام.

ولاستغرابه الشديد، اكتشف بعد عودة والده ووالدته إلى القرية بأنه قد بدأ يعتاد على هذه الحياة.

ففي الليلة الأولى التي ذهب يسهر فيها بعد رحيلهما، هاجمته نوبة من النعاس، ما تركته إلا وهو يغط في نوم عميق أمام مئات الناس في كباريه مزدحم..

وأصبحت نوبة النعاس هذه نكتة الاسبوع بين أصدقائه.

قالوا له: الفلاّح... فلاّح ولو عاش في المدينة مئة عام.

وقالوا: هل علّموك الفضيلة والتقوى في بيت والدك...

واستغرب هو أنه لم يضحك لهذه النكتة، بل على العكس، ضايقته وازعجته...

لو إنها قيلت قبل أسابيع لكان من الممكن أن يضحك لها طويلاً... أما الآن، وبعد المدة التي قضاها في القرية، والتي عاشها مع والدته في المنزل، أصبح يجد هذه النكات ثقيلة الدم... على مسامعه.

وكان في إحدى الليالي يصطدم مع أحد أصدقائه، وكاد الإصطدام يتطور إلى معركة، لأن الصديق أصر على هذه النكات...

وأخيراً قرر أن يسكت النكات إلى غير رجعة بسهرة من سهرات الماضي لا يهاجمه النوم فيها.

فدعا جميع الأصدقاء إلى سهرة يقضونها في النادي الليلي لفندق «الكابيتول».

واجتمع الأصدقاء حول مائدة كبيرة تتوسط المكان، وكانت نظراتهم موزعة بين حلبة الرقص... وبين وجه فؤاد...

هناك، لمراقبة الراقصين والراقصات...

وهنا، لمراقبة وجهه عندما ينام.

ولم ينم..

لقد كان فارساً من فرسان الليل، يقهر الليل حتى الصباح.

أراد أن يتحدى نظراتهم، فزاد في شربه، وزاد في عربدته، فعوض أضعاف الليلة التي نام فيها أمامهم...

وزاد على صخبه وعربدته وانطلاقه إلى القمة... عندما قامت الراقصة الإسبانية السمراء إلى الحلبة ترقص، على أنغام قيثارة

مجنونة تعزف ألحاناً من اسبانيا، تضرب الأرض بقدميها، وكأنها تعلن عن قدومها...

نقرة خفيفة عند الكعب...

التوى الخصر...

وتأوّه الجسد...

استدارت ترقص وكأنها كلها، بجسدها المشرئب.. المتعالي، قد تحولت إلى كتلة من نغم...

ثم توقفت فجأة...

وتعالى التصفيق...

ولو بقية من حياء لاندفع إلى الحلبة يشاركها الرقص.

وعادت ترقص من جديد.

تنتفض، تتلوى، والناس يهتفون بجنون، ورفيقها على القيثارة لا يهدأ، كأنه في سباق مع قدميها...

وبدأ الناس يصفقون ويهتفون ويخبطون على الموائد، وبالملاعق يضربون الزجاجات والكاسات... حتى عادت... مبللة بالعرق.

وزاد التعب في إغرائه...

والشعر متهدل على الجبين، خصلة واحدة... وابتسامة منتصرة حولت زوايا الخدين إلى غمازين...

وعادت ترقص... ليست وحدها هذه المرة، بل مع رفيق، دخل

إلى الحلبة، فارع الطول، أسمر اللون، وجهه محدد كمعالم لوحة كلاسيكية، وأثبت وجوده منذ اللحظة الأولى...

خبط على الأرض بقدميه وكأنه يؤكد: أنا الرجل...

هنا. أنا أقود الرقصة فاتبعيني يا امرأة... واستكانت المرأة، لا يضعف، بل بدلال، لا بتخاذل بل بأنوثة...

اقتربت منه، برشاقة وخفة، وحركت ذراعها وكأنها تريد أن تضمه إليها، ضمة حب...

ونظر إليها من عليائه، يتفحصها، يتأملها، واللحن يناسب ليساعده على التفحص والتأمل...

وعندما أعجبته واقتنع بأنها حلوة، جميلة، مد لها ذراعه، ليرقصا معاً...

ورقصا...

رقصة حب، الهبت مشاعر الساهرين...

رقصا، كأنهما جسد واحد وروح واحدة...

روح ليست هائمة، بل تعرف ما تريد وتنفذ ما تريد...

روح عطشى إلى الحب، إلى الرغبة، إلى الشهوة الجامحة.

وبدأت الأضواء تتلاشى واحداً تلو الآخر..

وهما يتلاشيان معها، حتى اظلمت الصالة وهما متعانقان، ثم اختفيا والناس في جنون.

وظل فؤاد يصفق ويصفق حتى بعد أن هدأ التصفيق بفترة

طويلة... ولم يجلس إلا عندما نادى «الجرسون» وطلب منه أن يدعو الراقصة لتشاركه الجلسة مع رفاقه...

وقال الجرسون:

ـ إنها لا تتكلم إلا الإسبانية. أنصحك بأن تجلس مع غيرها... ستصبح مملة بعد دقائق. فأجابه:

إن إعجابي بها لا يحتاج إلى لغة ولسان... بعيني سأشرح لها ما أريد. وحضرت الراقصة بعد قليل، وهي تبتسم...

وجلست بجانبه وفتحت زجاجة الشمبانيا. وشربا الأنخاب.

وبالإشارة قال لها كم هو معجب بها.

وبالإشارة أعاد الإعجاب فأعادت الشكر...

ثم تعب من الإشارة...

وتعبت من الشكر...

فجلست كالصنم بجانبه...

وتحول هو إلى نصف صنم..

واكتشف أن الجرسون كان على حق. وإن أي امرأة مهما كانت مثيرة، وحلوة وجميلة، تصبح كالصورة الحلوة إذا لم تتكلم...

وخاف أن يدب إليه النعاس مرة أخرى. لذلك ما كادت تبلغ زجاجة الشمبانيا... حتى كان يودعها وهو يقبل يدها ويحاول أن يفهمها بأنه آسف لأنه لا يستطيع أن يعبر لها عن إعجابه... وحبه إلا بالإشارة...

وفهمت فابتسمت.

وما كادت تختفي بين الموائد حتى كان يستدعي الجرسون من جديد ويطلب إليه أن يحضر أية فتاة تفهم الإنكليزية أو الفرنسية، حتى ولو كانت... قبيحة.

وضحك الجرسون وعاد وهو يجر وراءه أربع فتيات. واعترض فؤاد، فلقد طلب فتاة واحدة...

وقاطعه الجرسون: والشباب... ألا يريدون أن «يتسلّوا»؟

وهتف الشباب، وهللوا لفكرة التسلية، ومع الهتاف كانت الفتيات يتوزعن على المائدة.. كلهن من انجلترا.

جمالهن جمال بنات انجلترا. جمال خاص، لا يثير ولكنه لا ينفر.. يتسلل إليك بدون أن تشعر أنه يتسلل، كالمخدر، كالنوم، كالموسيقى الناعمة..

ووجد نفسه بعد الزجاجة الأولى، وقيمة الزمن في الكباريه تحسب بالزجاجات، لا بالدقائق، وجد نفسه وقد تسللت رفيقته الجالسة إلى جانبه إلى قلبه، وجسده، وعقله معاً...

فإذا به غارق في حديث حب، شعر في تلك اللحظة أنه يعني كل كلمة جاءت فيه. حتى هي، شعرت بأنه يتحدث بحرارة غريبة، فقاطعته لتسأله:

ـ لو رأيتني غداً، هل تهمس في أذني بنفس الكلمات...؟

وأجاب:

ـ لا...؟

ـ إذن أنت تكذب عليّ...

ـ بالعكس، أنا صادق معك ومع نفسي كل الصدق.

ـ وكيف تفسر ذلك؟

ـ في هذه اللحظة، أو في هذه السهرة... أنا أحبك. الآن أنت المرأة الوحيدة في حياتي... أنا لا أفكر إلا فيك... أما غداً فسأنساك. أنت حب عابر، أشعر به بنفس الصدق، ونفس الحرارة كأي حب، الفرق بيني وبين غيري إنني أعيش لحظات حياتي بصدق. عندما أقول لك أحبك الآن، فأنا أحبك. أما غداً فقد أسعد مع غيرك وأحبها بنفس العاطفة، والصدق، والحرارة التي أحببتك بها...

ـ أنت غريب.

ـ بل... عاطفي.

ـ كالشرق..

ـ تماماً.

ـ أنا أحب الشرق.

وضحك وهو ينهض من مقعده، ويقبل يدها عابساً وهو يقول:

ـ وبالنيابة عن الشرق، أنا أشكرك..

وضحكا معاً.

وطلبت منه أن يراقصها..

ـ لم تطلبني للرقص طوال السهرة... ما رأيك لو طلبتك أنا؟

واحتواها بين ذراعيه بحنان، كحنان اللحن الذي كانت تعزفه الأوركسترا.

وفوجىء بها بعد قليل تقول له:

ـ ألا تريد أن تدعوني إلى شقتك؟

ـ أنت جريئة...

ـ لا بل صادقة مع نفسي، ألم تعلمني أنت الصدق مع نفسي..

وضحك من جديد وهو يقول:

ـ سأفكر في الأمر..

ـ أرجوك... أقبل يديك، خذني معك الليلة.

قالتها بلهجة ساخرة...

وبسخرية أكثر، أجاب:

ـ إذاً قبلي يدي...

وقبلته في أذنه وهي تهمس:

ـ سأقبلهما في الشقة..

ونظر إلى ساعته فوجدها تقارب الثالثة والنصف، فقال:

ـ سأنتظر حتى الرابعة.

وأجابت:

ـ يمكننا أن نذهب الآن لو دفعت ثمن زجاجة شمبانيا جديدة.

وعاد إلى المائدة، فوجد أن جميع رفاقه قد ذهبوا... وغلبته السخرية من جديد وهو يقول لها:

ـ يظهر أن صديقاتك كلهن صادقات مع أنفسهن الليلة.

ودفع ثم زجاجة الشمبانيا، وتأبط ذراعها ليقودها إلى الخارج، ومن المصعد إلى الشارع... ثم إلى شقته.

... وفي الشقة أعادت له، بكل حب، ثمن زجاجات الشمبانيا التي دفعها.

واكتشف إنه لم «يُغلب» في السحر.

لقد كانت رائعة!!

وتركها في الشقة عندما ذهب إلى عمله، متأخراً كالعادة، وعندما عاد كانت لا تزال نائمة. وأيقظها ثم تناولا طعام الغداء معاً...

وبعد الغداء حاولت أن تعيد ذكريات ليلة البارحة فتمنع. قال لها:

ـ أنا أمقت الحب في النهار..

ـ يجب أن تتعلم كيف تحب في كل لحظة.

ـ لقد فات أوان العلم بالنسبة لي.

ـ إذن وداعاً.

ـ قالها وهو يتثاءب.

ـ سؤال أخير... هل سأراك الليلة..

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ أولاً... لأنني لست مليونيراً، وثانياً... لأنني أحب أن أشتاق إليك قبل أن أسهر معك مرة أخرى.

ـ من يدري قد تشتاق إلي بعد ساعات...

ـ مستحيل... أنا أعرف نفسي. إن شوقي صعب. كسهولة حبي في الليل.

والحت عليه. قالت له إنها ستحضر بعد عملها إليه، وإنها تحب أن تقضي لياليها معه.

فرفض... بل تعنت في رفضه.

ومع ذلك فما كادت الساعة تبلغ الحادية عشرة مساء... حتى كان يدخل ملهى فندق «الكابيتول» الليلي...

لقد اشتاق إليها...

* * *

ورأته وهو يدخل من الباب، فابتسمت.

ابتسامة فيها الكثير من الانتصار، كأنها تقول:

ـ كنت أعرف إنك ستأتي.

وجلس إلى البار محاولاً أن يتحاشى النظر إليها.

أراد أن يبرهن لها إنه لم يحضر إلى الملهى من أجلها. حضر ليسهر... لوحده.

وشعر بنظراتها تكاد تحرق ظهره...

وقاوم كثيراً كي لا ينظر إليها.

قاوم الرغبة الملحة التي كانت تعصف به كي ينهض ويتجه إليها، ويجلس معها.

ونجح في مقاومتها. استطاع ان يتلهى بكأسه وبحديث بلا معنى مع «البارمان».

لكنها لم تتركه. نهضت من مكانها واتجهت إليه، ثم جلست إلى جانبه وهي تقول:

ـ ألا تدعو فتاة وحيدة إلى كأس؟

ونظر إليها، وعطرها يرتفع إليه في صلاة... وانهارت مقاومته دفعة واحدة.

وأشار إلى البارمان بأن يقدم للفتاة الوحيدة ما تشاء...

وطلبت الفتاة الوحيدة كأس شمبانيا، وقالت وهي ترفعه إلى شفتيها:

ـ في صحة اللقاء الجديد.

ـ وفي صحة كل لقاء.

وشربا...

وتحاشت أن تحدثه عن عناده ليلة أمس. عناده وإصراره على عدم الحضور إلى الملهى. تحدثت عن كل شيء إلا عن ليلة أمس.

سألته:

ـ هل ستسهر معي الليلة؟

ـ إذا شئت.

ـ الشاب في «الكبارية» لا يخضع رغباته لمشيئة الفتاة، بل يفرض عليها رغبته.

ـ أحب أن أعاملك كصديقة، لا كفتاة «كباريه».

ـ إذا كان الأمر كذلك فأنا أتمنى أن أسهر معك الليلة...

ـ دعينا ننتقل إلى مائدة.

ـ ليس الآن، بعد «النومرو» علي أن أرقص بعد دقائق.

تركته لتبدل ثيابها استعداداً «للنومرو».

سهرة الليلة كانت كسهرة الأمس. بدأت برقصة حب. وانتهت بليلة حب في الشقة. وتركها نائمة في الصباح، وذهب إلى عمله.

وعاد عند الظهيرة ليجدها لم تزل نائمة. ايقظها، تناول معها طعام الغداء وودعته لينام بدون موعد للقاء.

.. ومرت أيام نسيها كما نسي غيرها.

* * *

عام كامل مرّ من حياته.

عام كامل عاشه كما عاش أعوامه السابقة. بملل، بفراغ.

«جون» تكتب له باستمرار.

وهو يجيبها باستمرار.

أصبحت رسائلها إليه، ورسائله إليها، عادة يتمتع بها.

تدخل إلى أيامه بعض الأشراق، وبعض الدفء.

في آخر رسالة قالت له بأنها حصلت أخيراً على الطلاق، وإنها تعيش الآن بهدوء في بلدها.

قالت إنها بدأت تعمل، وأنها تقضي كل وقتها بعد العمل في رعاية طفلها.

لم تفاتحه بقصة الرجوع إلى لبنان، وكأنها شعرت بأن وعوده، ووعود حبه، طارت مع العام الذي طار.

وأجابها مهنئاً، ومتحاشياً الخوض في حديث عودتها.

شعر وهو يكتب لها، إن في طلاقها ارتباط يوضع على عاتقه. وإنها تعرف هذا الإرتباط، وأنها قد تعرف بأنه يكره الإرتباط، ولذلك اقفلت الموضوع.

قال لها:

ـ قد نلتقي في يوم من الأيام، وقد نعيد أيام حبنا...

وعندما وضع الرسالة في صندوق البريد شعر وكأنه يودع حباً مر في حياته.

ولم تجب على الرسالة.

مرّ أكثر من شهر وهو ينتظر الجواب. وعرف بأنها قد قررت أن تطرده من حياتها، أن تعتبره كما شاء أن يعتبرها نزوة عابرة.

واستغرب أنه قد بدأ يشعر بأنها نزوة عابرة. نزوة كبقية النساء اللواتي مررن في حياته.

لقد حطمت الأيام، والبعد تلك العاطفة الخاصة التي كان يخصها بها.. كما حطمت الأيام كل حب آخر مرّ في حياته.

إنه الآن وهو يودع العام الراحل من حياته، في ليلة عيد ميلاده التي قرر أن يقضيها وحيداً في شقته، يحس بأن قلبه قد نضب من العاطفة. إنه يعيش بلا حب، بلا عاطفة، بلا قلب...

لقد أصبح قلبه كالمصعد، ينقل الناس من طابق إلى طابق، بدون أن يحس بهم أو يشعر بوجودهم.

وهاله أن يعيش بلا حب وبلا عاطفة وبلا قلب. هاله أن يتوقف قلبه عن الإهتزاز نشوة كلما قابل فتاة جديدة أو امرأة جديدة.

هاله الصدأ الذي بدأ يغلف قلبه.

وقرر أن يطرد الملل، يزيل الصدأ العالق بقلبه.

قرر أن يسافر. أن يعيش في أجواء جديدة، ويقابل وجوهاً جديدة. ويعيش في أرض جديدة.

واختار اسبانيا، ليسافر إليها.

فهو يحب الموسيقى الإسبانية، والجمال الإسباني، والرقص الإسباني...

وقد سمع أن أسبانيا بلد تكاد العاطفة تغرق شوارعه، وأن الناس هناك يحيون من أجل العاطفة.

إن الحياة بالنسبة لهم قلب كبير، محب، يغرفون منه، فلا ينضب... لأنهم يعطونه من قلوبهم الشيء الكثير.

وبعد اسبوع كان ينزل من سلم الطائرة في مطار مدريد. كل شيء هادىء في مطار مدريد.

مطار صغير كأنه «كاراج» قديم كبير. وصل إليه والليل يقترب من آخره. والنعاس يدب في كل شيء حتى في عيون الموظفين.

وسأله الموظف المسؤول عن الجوازات:

ـ في أي فندق ستنزل... سنيور؟

ـ لا أدري.

ـ ألم تحجز مكاناً في فندق قبل وصولك؟

ـ لا... هل من فندق معين تختاره لي..؟

وابتسم الموظف ثم سأله:

ـ هل تتقن الإسبانية؟

ـ لا.

ـ إذاً... إذهب إلى «الخاستيليانا هيلتون» حيث يتحدث الجميع بالإنجليزية.

وذهب إلى الهيلتون.

واستطاع أن يجد لنفسه غرفة بصعوبة.

فكل السياح من أميركا ـ وما أكثرهم ـ يذهبون إلى الهيلتون. ونام ليلته الأولى في أسبانيا وهو مرهق من الرحلة.

صحا عند الظهيرة فارتدى ثيابه على مهل كأي سائح في اجازة، ثم نزل إلى الصالون. وشعر وهو يخطو خطوته الأولى داخل الصالون الأنيق بأنه قد أصبح إنساناً جديداً.

كل شيء جديد. الناس، الحديث، الموسيقى، حتى نوع العطر الذي يلف النساء...

والجمال صارخ في كل مكان. لقد تجول بناظريه لدقائق طويلة في كل زاوية من زوايا المكان، فلم يتوقف عند امرأة واحدة لم يصرعه جمالها.

وظن في بادىء الأمر أن الدخول إلى هذا الفندق محظور إلا على النساء الجميلات..

واعتقد أن النساء المبعثرات في كل مكان، قد وضعن هناك كدعاية للفندق.

ولكنه عدل عن رأيه واعتقاده عندما خرج يتجول في الشوارع، فإذا بالجمال وكأنه قد انتقل من صالون الفندق إلى الشوارع.

وابتسم وهو يفكر في قصة العرب في اسبانيا، لقد لمعت في ذهنه فكرة... فلطالما تساءل في الماضي عن سر الإنحلال الذي أصاب العرب أثناء حكمهم لاسبانيا...

والآن، عرف سر هذا الإنحلال... بل، لقد عرف سر طرد العرب من اسبانيا... لقد طردهم هذا الجمال.

لقد غرقوا فيه، وفي محاسنه، فلم يشعروا إلا وهم كآدم وحواء مطرودين من الجنة.

وقرر أن يغرق في هذا الجمال... وليكن مصيره مصير اجداده. الإنحلال.. فالطرد.. وبدأ يغرق منذ الليلة الأولى...

توجه بعد العشاء إلى الملهى الليلي في الفندق. ملهى «الرانديفو». لكنه سرعان ما هرب منه بعد دقائق.. فالملهى

يكاد يكون صورة طبق الأصل عن أي ملهى من ملاهي بيروت..

شعر بأن هذا الملهى غريب عن اسبانيا. حتى إن معظم الساهرين فيه كانوا من الأجانب، وتوجه نحو الشاب الذي يجلس في غرفة الإستقبال، وقال له:

ـ اريد أن أعيش حياة الليل في مدريد..

وطلب منه الشاب إيضاحاً لمعنى حياة الليل في مدريد.

قال له:

ـ اريد أن أسهر في ملهى اسباني، لا ملهى أمريكي «كالراندفو»...

واجاب الشاب على الفور:

ـ سأدلك على ملهى تعيش فيه كل اسبانيا. اذهب إلى ملهى «الدوندي».

وكيف اذهب إلى هناك؟

ـ قل لاي سائق تاكسي يقف أمام الفندق أن يأخذك إلى «الدوندي»، فهم جميعاً يعرفون المكان...

وشكره ثم خرج من الفندق ليذهب إلى «الدوندي» وابتسم السائق وهو يذكر له اسم الملهى...

وقاد السيارة على مهل، حتى وصل إلى مدريد القديمة...

وشعر فؤاد بأنه قد عاد فجأة إلى الشرق.

فالشوارع والمباني، حتى وجوه الناس، تذكره بأي حي قديم من أحياء الشرق.

طابع الشرق لا يزال يغلب على كل شيء..

وغرق في تأملاته حتى توقفت السيارة وقال السائق:

ـ «الدوندي سينيور».

ونزل من السيارة ليجد نفسه أمام باب صغير اضطر لأن يحني رأسه وهو يدخل منه...

ونزل في درجات ضيقة مظلمة، لتستقبله سيدة عجوز ابتسمت في وجهه ثم رحبت به بكلمات انجليزية تقرب كثيراً من الأسبانية... وقادته إلى الداخل.

والداخل مكان ضيق ينسجم مع صغر الباب، وهناك كراس من القش، تشبه الكراسي الموجودة في مقاهي الشرق، ومسرح يشبه «المصطبة» المرتفعة، والمكان مزدحم...

ووجدوا له كرسياً صغيراً في إحدى الزوايا... أما المائدة فقد شارك فيها جار له، حشر أيضاً في كرسي لا يتسع لحجمه الضخم.

وبدون ان يطلب شيئاً، وضعوا أمامه زجاجة من مشروب أحمر، وكأساً فارغة ثم تركوه يحدق في الناس. وفي المسرح الذي كان فارغاً ينتظر راقصة وعازف. وصب لنفسه كأساً من المشروب الأحمر اللون. مشروب غريب المذاق، حاد النهكة، جعل الدمع يطفر من عينيه. مشروب حار كالبلد الذي ينتجه.

ودار بنظره في الساهرين فوجد أن معظمهم مثله غرباء يبحثون عن اسبانيا في ملهى.

سياح من جميع بلدان العالم، جلسوا وكأنهم في قطار ينتظرون اشارة السير.

ولم يطل انتظارهم، فقد اطلقت اشارة السير مع دخول رهط من الفتيات الصغيرات والفتيان، ومعهم اربعة عازفين يحمل كل منهم قيثارة.

وجلسوا في مقاعد حول المسرح وكأنهم تلاميذ في مدرسة. وهدأ الحديث في المكان بانتظار الخطوة التالية...

واتجهت الأنظار إلى المسرح. ومن المسرح انطلق صوت القيثارة تتلاعب بأوتارها أنامل أحد العازفين...

ثم انطلق الجميع يصفقون على إيقاع واحد رتيب، ونهض أحد الشباب وبدأ يغني غناء ذكره بالغناء العربي القديم، بالليالي والمواويل.

وعندما انسجم العزف مع التصفيق والغناء، دخلت إلى المسرح فتاة سمراء طويلة. وبدأت ترقص...

وانتفض فؤاد في مقعده..

إنه يعرف هذا الوجه...

يعرف هذه المرأة...

يعرفها جيداً... ولكن أين... ومتى وكيف قابلها...

ونسي الرقص والعزف والغناء... وبدأ يحاول أن يتذكر أين قابلها.

* * *

ورأته.

رأته ينظر إليها، فابتسمت، وكاد يقفز من مقعده...

فهو يذكر هذه الإبتسامة جيداً، ويذكر هذا الوجه. وتعب من التفكير. ولم يصل إلا إلى نتيجة واحدة، وهي إنه قابلها في بيروت، حيث جاءت تعمل كراقصة في أحد الملاهي..

أي ملهى؟

وفي أي عام؟ لا يذكر..

وعاد ينظر إليها فوجدها لا زالت تنظر إليه كلما استدارت، وتبتسم. وبينما كان التصفيق يرتفع لها، وهي تنهي رقصتها، كانت تنتزع الوردة الحمراء التي كانت تزين بها شعرها وترمي بها إليه!

وتناول الوردة فرفعها إلى شفتيه... وقبّلها. وصفق الجمهور مرة أخرى للوردة، وللقبلة. وانتظر أن تحضر لرؤيته، فلم يطل انتظاره، فقد اطلت من الباب بعد دقائق وهي تبتسم له من بعيد...

ووقف ليصافحها، وما أن جلست وارتفع شذى عطرها «الفاقع» إلى أنفه حتى عرفها فوراً.

عرفها من العطر الغريب الذي كانت تستعمله. وكيف ينسى هذا العطر الذي عطر أيامه لمدة طويلة...

إنها أليسيا!

أليسيا الراقصة الصغيرة التي عملت في ملهى «الكاسبا» قبل خمسة أعوام. الراقصة التي ظنّها الناس طفلة عندما رأوها في الليلة الأولى... كم غيرتها الأيام!!وعلى الأصح، كم كبرت مع الأيام.

لقد أصبحت الطفلة امرأة.

امرأة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. امرأة أنسته الطفلة التي عرفها قبل أعوام.

وأخبرها بما يجول في خاطره، فضحكت وهي تقول إن الليل يجعل الأطفال يكبرون بسرعة..

ـ ويجعلهم يبدون أجمل!

ـ لم تغيّر عادتك...

ـ أية عادة؟

ـ عادة أغداق الأطراء والمديح...

ـ إنها الحقيقة!

ـ ولكنك تمارس الحقيقة باستمرار.

ـ من أجل إرضاء الجميلات.

ـ ألا زلت تجدني جميلة؟

ـ إن السنين انضجت جمالك.

ـ وهل تحب الجمال الناضج؟

ـ أحب الجمال كيفما كان...

وانتبها إلى أنهما يتحدثان بصوت مرتفع، وإن الناس قد بدأوا يتلفتون نحوهما باستغراب... واستنكار.

واخفض صوته وهو يسألها:

ـ ألا نستطيع أن نذهب إلى مكان آخر... مكان هادىء نستطيع أن نتحدث فيه كما نشاء؟

ـ طبعاً... ادفع الحساب، وسنذهب فوراً.

ودفع الحساب، وخرجا معاً يمشيان في شوارع مدريد القديمة الضيقة. كان وقع أقدامها يقلق الصمت الذي يلف المدينة...

وكانت تتعلق بذراعه، فرحة به، فرحة إلى الصدفة، التي جمعتهما في بلدها مدريد، بعد أن جمعتهما في بلده بيروت.

قالت:

ـ العالم صغير!

أجاب وهو يرفع يدها ليقبل أناملها:

ـ أصغر مما تتصورين.

ـ من قال إننا سنلتقي في مدريد بعد هذه الأعوام الطويلة؟

ـ القدر...

وضحكت بسخرية ثم تابعت:

ـ سخافة، إنه الطيران الذي قصر المسافات وقرب بين الناس.

ـ وجمعنا...

وشدته إليها وهي تقول:

ـ أين تقيم؟

ـ في «الهيلتون».

ـ في «الهيلتون»؟

ـ وصفقت فرحاً... ثم قالت:

ـ إذاً لنذهب إلى هناك.

ـ سنذهب إلى هناك فيما بعد... ألا تريدين أن نذهب إلى ملهى إسباني آخر.

ـ دعك من الملاهي الإسبانية، فكلها تتشابه. لنذهب إلى «الهيلتون»، لنرقص في «الراندفو».

ولم تمهله حتى يقبل أو يعترض، بل نادت سيارة تاكسي كانت تقف في زاوية بعيدة، ولما وصلت السيارة قفزت إليها وهي تقول:

ـ «خاستيليانا هيلتون».

وفي «الهيلتون» رقصا.

رقصا حتى مطلع الفجر.

واستقبلا الفجر معاً في غرفته المطلة على حديقة الفندق.

* * *

عندما كان يمشي نحو الطائرة في مطار مدريد، كان يتماسك حتى لا تسقط دموعه على أرض المطار.

لقد أحب اسبانيا

وأحب مدريد.

عشق أرضها وسماءها، وشمسها، وأهلها.

عشق كل لحظة قضاها هناك.

لم يشعر بأنه لم ينتقل من بلده إلى بلد غريب، بل إلى بلد كأنه قطعة من بلاده.

وعندما وصل إلى بلاده قضى أكثر من شهر كامل وهو لا يتحدث إلا عن اسبانيا، والأيام التي قضاها في أسبانيا.

يوم وصوله، أرسل برقية إلى أليسيا قال لها فيها: عرفت الآن سر جمالك... انت قطعة حية من بلادك...

ومع الأيام، كادت ذكريات الرحلة تتلاشى وتموت ولم يبق من آثارها إلا أثر واحد.

أثر لم يصدقه هو في بادىء الأمر، ولكنه أصبح يرافقه مع الأيام. فلقد بدأ يشعر بالقرف نحو الحياة التي يحياها..

شعر بحاجة إلى الابتعاد عن أجوائه القديمة، عن حياته القديمة.

سئم هذه الحياة، وهو يشعر بالقرف والغثيان كلما تذكر الأيام التي قضاها يدور من بار إلى بار، ومن كباريه إلى كباريه، ومن راقصة إلى راقصة.

ولكن كيف يوقف هذه الحياة؟

سؤال ظل يؤرقه ليلة أثر ليلة.

وليلة أثر ليلة، كان شعوره بتفاهة حياته يزداد...

وليلة أثر ليلة ظل الجواب على اسئلتة الحائرة يحطم أعصابه.

هل يتزوج؟

هل يهدأ؟

هل يستقر؟

هل يبحث عن الطمأنينة في منزل ومع زوجة وبنين؟

واستبعد الفكرة بسرعة.

إنه يعتبر الزواج نوعاً من الانتحار...

أو نوعاً من الموت البطيء، وهو لا يريد أن ينتحر.

إنه يحب الحياة... ولا يريد أن يموت... لأنه يعشق الحياة. وحتى لو قرر أن ينتحر أو يموت، فهل يستطيع من أفنى شبابه في ليالي العربدة، أن يستقر مع زوجة ومنزل.

وطرح السؤال على صديق له سبقه إلى دنيا الزواج، فلم يجد عنده جواباً يقنعه.

وجد عنده نوعاً من الخنوع للواقع، والخضوع لمصير حددت نهايته.

وهو بالرغم من ارادته التامة، واقتناعه بأن عليه أن يغير الطريقة التي يحب بها أيامه، يقتل حريته المطلقة ويكره القيود التي تفرضها الحياة مع زوجة.

وعاد يسأل نفسه...

حتى ولو ضحى بحريته، فأي نوع من الفتيات يختار كشريكة للعمر.

فتاة محافظة... عاشت في ظل التقاليد.

فتاة حرة... خرجت على التقاليد.

هل يحتمل، وهو الذي عاش مع نساء كلهن يرزحن تحت أعباء الماضي أن يعيش مع زوجة عرفت غيره...

مستحيل!

ولكن هل يستطيع أن يعيش مع امرأة ساذجة، لا تفهم من الدنيا إلا ما تعلمته في المدرسة. ومن محاضرات والدتها المصون...

مستحيل أيضاً.

هل يتزوج من فتاة لبنانية؟

أم من فتاة أجنبية؟

اللبنانية لن تفهمه...

والأجنبية لن تقبل أن تفهمه...

ومضت الأيام والأسابيع وهو يناقش نفسه. وخرج من المناقشة بنتائج كثيرة...

ناقش مع نفسه قضية حرية الفتاة اللبنانية، وحرية الشاب اللبناني. واكتشف أن حريته تكاد تكون معدومة ما لم يمارسها مع فتاة حرة.

واكتشف ان الحرية قضية يجب أن يمارسها شاب مع فتاة... فإذا قيد احدهما فقد الآخر حريته.

ما نفع الليالي التي يقضيها وحده في «كباريه» أو في مطعم؟

صحيح أنه حر، ولكنه مقيد بممارسة هذه الحرية مع نفسه فقط... وبدأ يبحث عن فتاة يناقشها في هذه النتائج.

فتاة ليست حرة، وليست مقيدة...

فتاة تتمتع بحرية نسبية...

ولكن أين يجد هذه الفتاة، وقد كاد ينسى كيف يتكلم مع فتاة لبنانية. لقد ابتعد عنها منذ سنوات.

لقد استبدلها بفتيات الليل...

وبدأ يتردد على المرابع والمقاهي التي تتردد عليها طالبات الجامعة الأميركية، أكثر من جلوسه في «الانكل سام» و«الكوينز» و«الايغلزنست». ووجد صعوبة في أن يعود نفسه على هذه الجلسات... ووجد صعوبة أكثر في أن يجد من يجلس معه.

فمنذ أن تخرج في الجامعة الأُميركية وهو لا يمر أو يجلس في هذه الأماكن إلا لدقائق قليلة تمهيداً لسهرة أو بحثاً عن رفيق سهرة.

وعرف الناس عنه في تلك الأماكن إنه ابن بك... فتحاشت معظم الفتيات رفقته أو رفقة أي صديق من أصدقائه...

وكاد يمل الجلوس...

وكاد يمل البحث عن الفتاة المبهمة...

الفتاة التي لا يعرف عنها سوى إنها جامعية، لبنانية، تجلس في «الانكل سام» و«الايغلزنست» أو «الكوينز»... وإنها تستطيع أن تناقش معه قضية الحرية...

وكاد يتوقف عن الذهاب ألى أي مكان ويعود إلى حياته القديمة لولا أنه دخل ذات مساء فوجد «الايغلزنست» فارغاً إلا من فتاة وحيدة تجلس في زاوية وهي تنظر من زجاج النافذة إلى الشارع.

والتفتت إليه عندما دخل. فابتسم لها فوراً.

وابتسمت له بحرارة.

وبعفوية اتجه نحوها... وهو ما يزال يبتسم.

* * *

ووقف أمامها حائراً متردداً لا يدري كيف يفسر ابتسامتها المعلقة على شفتيها...

هل هي دعوة إلى الجلوس أم دليل بلاهة؟

هل هي إغراء أم عادة؟

واختصر تفكيره بسؤال وجهه وهو يشير بعينيه إلى كرسي. قال:

ـ اتسمح الآنسة؟

ـ تفضل.

وظلت تبتسم... وسحب الكرسي ثم جلس وهو يقول:

ـ ارجو أن لا أكون قد ازعجتك؟

ـ بالعكس، كنت بانتظار رفيق

ـ أأنت وحدك؟

وضحكت وهي تقول:

ـ وهل ترى معي أحداً؟

وشعر بأن الدم قد ارتفع إلى وجهه قليلاً، وهو يجيب:

ـ لا ولكنني ظننت أنك بانتظار أحد!

ـ لا... لست بانتظار أحد!

ـ هل تسمح الآنسة أن أقدم لها فنجاناً من القهوة؟

ـ وسيجارة لو سمحت...

واستغرب صراحتها المتناهية، واسرع يقدم لها سيجارة، ثم صفق للجرسون وطلب فنجانين من القهوة. وعاد يقطع حبل الصمت الذي اغرق الجلسة بقوله:

ـ الآنسة تدرس في الجامعة؟

ـ اسمي سميرة وأنا أدرس في كلية بيروت للبنات...

ـ اسمي فؤاد... واعمل كمهندس.

وبحركة عفوية مد يده يصافحها وهو يقول:

ـ تشرفنا..

وعاد الصمت يغرق الجلسة.

ولم تنتظره كي يقطع الصمت بل فاجأته بقولها:

ـ ألا تريد أن تسألني عن حياتي؟

كان السؤال مفاجأة.

مفاجأة عرف منها أنه أمام فتاة من طراز غريب.

فتاة صريحة إلى درجة محرجة.

واسرع يجيب:

ـ طبعاً... طبعاً ولكنني كنت اتحين الفرصة.

ـ لقد اعطيتك الفرصة... اسألني وأنا أجيب.

ـ سأترك لك الحرية بأن تخبريني بما تشائين.

ـ قصتي طويلة..

ـ ووقتي أطول.

ـ ولكنني لا أحب أن أرويها للحائط... أحب أن أرويها لإنسان يشعر معي، يتجاوب مع ما أقول. يسألني وأجيبه.

ـ إذاً سأسألك، من أين أنت؟

ـ من هنا، من لبنان.

ـ الحمد الله.

ورفعت نظرها إليه باستغراب وهي تقول:

ـ ولماذا الحمد، أكنت تعترض لو لم أكن من لبنان. لو كنت من العراق مثلاً أو من سوريا أو من الأردن؟

ـ لا... ولكنني كنت أبحث عن فتاة لبنانية.

ـ تبحث عن فتاة لبنانية... لقد لاحظت أنك تبحث عن شيء، ولكنني لم أعرف أنك تبحث عن فتاة لبنانية.

ـ وكيف عرفت أنني أبحث عن شيء؟

ـ لقد راقبتك منذ أكثر من اسبوعين وأنت تحضر إلى هنا... تجلس وحيداً... تنظر حولك كأنك اضعت شيئاً ما.

ـ إذاً لقد لاحظت ذلك؟

ـ طبعاً... اتظن أنني ابتسم لكل من يدخل إلى «الإيغلزنست». لقد ابتسمت لك لأنني أردت أن أتحدث إليك، واسألك عن الشيء الذي فقدته.

ـ لم أفقد شيئاً، ولكنني أبحث عن شيء. أبحث عن فتاة لبنانية.

ـ ولماذا؟

ـ لأتحدث إليها. لأفرغ لها ما في قلبي، اسألها جواباً عن أكثر من سؤال حائر يدور في رأسي...

ـ أنا على استعداد...

ـ وأنا على استعداد...

وضحكا معاً.

قالت وهي لا زالت تغالب ضحكتها:

ـ لو سمعنا أحد لظن أننا سندخل في مبارزة بعد لحظات.

ـ إنها بالفعل مبارزة، ولكن من نوع جديد، هل حددت نوع السلاح؟

ـ لقد تركت تحديده لك...

ـ لنترك السلاح الآن ونعود إلى مشكلتك، ماذا تريد أن تعرف عن الفتاة اللبنانية؟

ـ أريد أن أعرفها... أشعر بأنني أجهلها تماماً.

ـ ولكنك لبناني!

ـ لبناني عاش مع اجنبيات.

ـ إذاً لنبدأ حديثنا بالمقارنة بين فتاة لبنانية وفتاة أجنبية.

ـ وهل هناك وجه للمقارنة؟

ـ أكثر من وجه، لنبدأ بالحرية مثلاً...

ـ هذا موضوع طويل وشائك...

ـ ولكنه مهم، بل أهم موضوع في المقارنة.

ـ إذاً لنبدأ المقارنة.

ـ تماماً، سأبدأ بنفسي، سأسأل نفسي.

ـ هل أنا حرة؟

الجواب: نعم ولا. بالنسبة لأهلي وللناس أنا حرة تماماً. أذهب إلى الجامعة. لي أصدقاء من رفاقي الطلاب، أسهر معهم، أخرج من المنزل ساعة أشاء، وأعود ساعة أشاء.

والدي رجل مثقف ترك لي الحرية المطلقة. ووالدتي سيدة فاضلة، علمتني الفضيلة وتركت لي حرية الحياة بها، أو بدونها. استطيع لو شئت أن أفعل ما أشاء بدون رقيب.

إذاً في نظر أهلي والناس أنا فتاة حرة. أما في نظر نفسي فأنا لست حرة على الإطلاق. أنا عبدة لنفسي، لعاداتي، لعقدي. فأنا أشعر باستمرار إن معظم ما أفعله خطأ.

أناقش نفسي، أحاول أن أبدّد هذا الشعور، واقنع نفسي،

ولكنني لا استطيع منع نفسي من الشعور بأنني أسير ضد كل ما تربيت ونشأت في ظله. لا أحد في الدنيا يمنعني من أن أذهب مع شاب إلي مرقص. أن أشرب الخمرة معه، إن أراقصه حتى الصباح، أن أذهب إلى شقته لو شئت.

ولكنني أشعر بأنني مخطئة في كل ما أفعل، فأنا عبدة. باختصار أنا لست حرة.

أما الفتاة الأجنبية فهي تمارس نفس حريتي، ولكنها لا تشعر بأنها مخطئة. لقد ساعدتها بيئتها، وتربيتها، وظروفها، أن تنشأ بدون أن تشعر بأنها كسرت قانوناً أو خرقت تقليداً أو ارتكبت معصية. إنها حرة. حرة أمام نفسها.

هذه باختصار مقارنة سريعة وبسيطة لمفهوم الحرية بالنسبة لي كفتاة لبنانية، وبالنسبة لفتاة أجنبية.

ـ إذاً لا يلام الشاب اللبناني إذا فضل صداقة الفتاة الأجنبية على صداقة الفتاة اللبنانية.

ـ طبعاً يلام... لانه لم يساعد الفتاة اللبنانية على حل عقدها، بل تركها تتخبط لوحدها في المعركة.

ـ ولكنها تأبى أن تطلب مساعدته...

ـ لم يعتد الرجل اللبناني، والغربي أن يعرض مساعدته على المرأة، بل يفرض عليها ذلك...

ـ كان ذلك أيام زمان، أما اليوم ومنذ أن بدأت تطالب بالمساواة فهي تتصرف لوحدها...

ـ إنها تمثيلية ضخمة تحاول المرأة أن تمثلها على الرجل، ولكنها تفشل في معظم الأحيان.

ـ وكيف يستطيع الرجل أن يساعد الفتاة اللبنانية؟

ـ أن يأخذ بيدها برفق في هذه المرحلة من حياتها. ان يدعها تمر بسلام في الطريق الوعر الذي تجتازه. ان لا يقسو عليها بل يفهمها، وينسى شبابه ولو قليلاً أثناء ذلك...

ـ لكنه يريد أن يحيا شبابه، أن يحيا بدون كبت.

ـ وأين الكبت في صداقة فتاة لبنانية؟

ـ في هذه الصداقة كل الكبت... أنه يشعر وهو معها أنه مع إنسان غير طبيعي. إنسان يمثل طوال الوقت. يمثل في كل شيء حتى في عواطفه. إذا كرهته اخفت عواطفها، وإذا أحبته طمست شعورها. إذا طلب منها أن تسهر، احتجت بالتقاليد والماما والبابا، وإذا لم يطلب منها أن تسهر قالت إنه لا يعاملها كإنسانة.

إنها تقول له: «لا» باستمرار، بحكم العادة، لقد علموها أن «تتقل» لأن الفتاة التي لا تقول «لا» باستمرار تعتبر فتاة خفيفة. والرجل الشرقي لا يحب الفتاة الخفيفة. قصتها مع الشاب الشرقي كقصة الشاب الشرقي مع الفتاة الأجنبية، فهي عندما تصادق شاباً اجنبياً تنسى كلمة «لا» وتنسى عقدها.

وتنسى تقاليدها كي تبرهن له إنها بمستوى وبتفكير الفتيات اللواتي عرفهن في بلاده. إنها لا تمارس حريتها إلا مع

الأجانب، تماماً كما لا يمارس الشاب اللبناني حريته إلا مع الأجنبيات.

قاطعته قائلة:

- والحل؟

- الحل أن يتخلى كل منهما عن أنانيته وتفكيره وتصرفاته ويلتقي مع الآخر في منتصف الطريق.

- على الشاب أن يبدأ بهذه الخطوة.

- لقد بدأت أنا...

وصفّقت له وهي تصرخ:

- برافو... والآن استرح واعطني سيجارة، واطلب لي فنجاناً آخر من القهوة...

ومرة ثانية شعر بالدم يرتفع إلى رأسه. وقدّم لها سيجارة، ثم طلب فنجاناً من القهوة واستأنف الحديث قائلاً:

- وما رأيك بحرية الشاب اللبناني؟

- إن حريته مرتبطة بحرية الفتاة.

- لم أفهم.

- أعني ما دامت الفتاة لا تتمتع بحريتها، فهو لا يتمتع بحريته. إنه عبد ما دامت هي عبدة. فما نفع حريته إذا كان لا يستطيع ممارستها مع رفيقه. ما نفع جلساتك «الحرة» التي كنت تمارسها هنا يومياً لوحدك، لو لم تجدني هنا لاشارك هذه الحرية...

وكاد يوافق معها لولا ذلك الشعور المبهم الذي اجتاحه وجعله يقرر أن يعارضها.

وبدأ يخالفها في الرأي بدون حجة وبدون منطق، وكان يشعر في قرارة نفسه بأنه مخطىء وإنها على حق.

ولاحظت هي ذلك فأصرت على رأيها...

وتشعب الحديث حول الحرية وحول المجتمع وحول التقاليد... وكان الظلام قد بدأ ينتشر في الخارج، والجرسون يضيء المصابيح في المكان... ولاحظ إنها تنظر إلى ساعتها كل دقيقة وسألها:

ـ هل أنت على موعد؟

فأجابت:

ـ نعم.

ـ مع من؟

ـ مع شاب...

ـ مع شاب؟

ـ نعم مع شاب، وأي غرابة في ذلك!!

وتلعثم...

ـ لا... ولكن ظننت أنك ترين في المواعيد مع الشباب خطيئة.

ـ ومن قال إننا لا نرتكب الخطيئة بالرغم من معرفتنا بأنها خطيئة.

ـ إذن أنت ذاهبة بالرغم منك...

ـ لا... أنا ذاهبة بمطلق إرادتي، وحريتي.
ـ هكذا، تذهبين إلى الخطيئة بعينين مفتوحتين.
ـ أليس هذا أفضل من أن أذهب إليها وأنا مغمضة العينين..؟
وأفحمته فلم يجب، ونهضت وهي تعتذر.
قال لها وهو يصافحها:
ـ هل سنلتقي...؟
ـ لماذا؟
ـ لاستئناف الحديث.
ـ إذا شئت.
ـ طبعاً.
ـ إذاً غداً.
ـ هنا؟
ـ نعم، في نفس المكان.
ـ والزمان؟
ـ والزمان!
وودعته. ورآها وهي تصفق باب المقهى الزجاجي خلفها...
واختفت في زحمة الشارع. واستغرب. استغرب جداً الشعور الذي ملأ قلبه.
شعور بالغيرة من الشاب الذي ذهبت لمقابلته.

* * *

ولم تحضر في اليوم التالي...

لقد تركته مسمراً في كرسيه، يأكل الشارع بعينه، ويلتهم الباب بناظريه، ويحرق دقائق الانتظار مع لفافاته وفناجين القهوة... والغيظ.

وانتظرها ساعة كاملة.

ساعة شعر خلالها بأنها ضحكت منه ومن اسئلته ومن نقاشه أمس. وإنها ليست على استعداد لان تعيد الكرة مع شاب يبحث عن أشياء غامضة، غير محددة، ليست واضحة، كالحرية والتقاليد، وعلاقة الشاب اللبناني بفتاة لبنانية...

شعر أنه عاش طوال السنوات الماضية، السنوات التي قضاها مع فتيات الليل، كغريب في بلاده، ولا يعرف عنها أكثر مما يعرف أي أجنبي عاش فيها لسنوات...

وتذكر إنه لم يسألها عن عنوانها أو حتى عن رقم تلفونها حتى يتصل بها مستفسراً عن سر غيابها.

كل ما يعرفه إنها تدرس في «كلية بيروت للبنات»، وإنها تعيش مع والديها في ضاحية من ضواحي بيروت، وإنها تمارس الحرية المطلقة بشكلها الخارجي، وتشعر في الوقت ذاته إنها عبدة لماضيها وماضي كل فتاة لبنانية.

وتذكّر عباراتها وهي تقول:

«صحيح إنني أستطيع أن أفعل كل ما أشاء بدون رقيب أو حسيب، ولكنني أشعر طوال الوقت بأنني مخطئة، بأنني

أرتكب أثماً، بأنني أزيف الواقع،فأدعي حرية لم أنلها، وإنما أعطيت لي، فخفت أن أتصرف بها كإنسانة ناضجة».

وفجأة خطر له خاطر...

لِمَ لا يتّصل بها في الكلية؟

لعلها لا زالت هناك. لعلها تأخرت في محاضرة أو درس، ولم تعرف كيف تتصل به؟

واتصل بالتلفون..

ووجدها بالفعل.

ولم تعتذر.

لم تقل إنها آسفة لعدم الحضور...

كل ما قالته إنها لم تشعر بأنه كان جاداً في طلب، وإن لقاءهما لم يكن إلا صدفة. وإنه كان ينتقي الألفاظ أثناء حديثه معها، «لمآرب» عديدة...

واغاظته لفظة مآرب، فقال بحدة وغيظ: أرجوك أنت لم تفهمي الإنسان الذي جمعتك به الصدقة...

ـ لماذا؟

ـ لأن لفظة مآرب هذه لا تنطبق علي.

ـ من قال ذلك؟

ـ أنت...

ـ أنت لم تفهمني... قد يكون مأربك قتل ساعة من فراغك.

ـ أنت ذكية.

ـ تبينت ذكائي بلحظة ولم تدركه طيلة الوقت الذي تحدثنا خلاله في «الأيغلزنست»؟

ـ عرفتك ذكية في «الإيغلزنست» وتأكدت من ذكائك الآن على التلفون.

ـ أما أنا فعلى العكس، عرفتك ذكياً في «الايغلزنست» وعرفتك الآن...

ماذا؟

ـ ذكياً جداً.

واطلق ضحكة رنانة، ثم قال:

ـ أريد أن أراك.

ـ متى؟

الآن.

ـ لا يمكن لأنني مرتبطة بدروسي.

ـ متى إذاً؟

ـ غداً صباحاً من العاشرة إلى الحادية عشرة والنصف.

ـ ولماذا هذا الوقت بالذات؟

ـ لأنه وقت فراغ بين درسين.

ـ هذا الوقت لا يناسبني، لأنني سأكون في مكتبي.

ـ إذن أصرف النظر عن هذا اللقاء.

ـ بل يجب أن أراك.

ـ إذاً بعد عشرة أيام.

ـ عشرة أيام؟

ـ نعم.

وكاد يثور لطول المدة، ولكنه خشي أن تفهم من ثورته تلهفاً للقاء. كل ذكائه وخبرته ومفهومه بات العوبة بين يدي فتاة... واحدة. وكتم الدهشة والغضب، وقال بلهجة اللامبالي: إذاً بعد عشرة أيام... وابتسمت ابتسامة الظفر وهي تقول: ـ لا تتأخر عن الموعد... في «الإيغلزنست»، الساعة السابعة من مساء السبت.

ـ لن أتأخر.

واعاد السماعة إلى مكانها، فيما اتخذ قراراً بينه وبين نفسه.

لقد قرر الا يذهب إلى «الإيغلزنست» وإلا يفكر فيها بعد اليوم. وابتسم لقراره، ابتسامة الظافر المنتصر...

لقد سبقه خياله إلى مكان الموعد في الوقت المضروب، فرآها تجلس وحيدة إلى طاولة، تمثل الدور الذي قام به هو قبل لحظات... وضحك من جديد ثم غادر المكان.

ومضت أيام ثلاثة، وكله شوق لدنو اليوم العاشر.

وتساءل في نفسه، لماذا كل هذا الإشتياق ما دام قد ازمع على التخلف عن الموعد؟

واقنع نفسه أن شعوره هذا مجرد عامل نفساني يربطه بإنسان سيثأر منه لكرامته.

ومرّ اليوم الثامن، وهو لم يزل على إصراره...

لن يذهب.

وفي اليوم العاشر، أفاق من نومه قبل موعده، كأنما هزته يد بعنف. لماذا أفاق؟

إنه اليوم العاشر... يوم الاجتماع.

وما همه من اليوم العاشر؟ كذا تذوب الاختبارات التي اشتراها بشبابه ووقته، وتتلاشى إرادته أمام فتاة؟

لا. لن تذوب ولن تتلاشى...

كان قوياً وسيبقى. لن يذهب...

ونهض من سريره وهو لا ينوي على شيء.

ايستمع للراديو؟

ايحلق ذقنه؟

هل يستحم أم يحضر كوباً من القهوة؟

منذ متى يصيبه هذا الارتباك؟

سيمر في يومه حدث يخلد هذا اليوم...

ولكنه حدث مرتبط بموعد، وقد قرر إلا ينفذ وعده وألا يذهب... ولكن. وجد نفسه يحلل موقفه، وهو اشبه بالضائع، وفجأة قرر أن يذهب للموعد، أقنع نفسه أنه ذاهب ليثبت أنه لا يخاف منها!

وعاد يتساءل: ولكن أين رجولته؟ لقد صمم على التخلف عن الموعد... فكيف له أن يذهب ويمتنع في وقت واحد؟ كيف؟ ووجد الحل.

سيذهب متأخراً ساعة. سيتركها لوحدتها، تشعر بالفراغ الذي سببه غيابه... ومتى حضر، سيستطيع أن يقرأ على ملامح وجهها تأثير وجوده فيها... إذاً سيذهب، ولكن بعد الموعد بساعة.

وقبل الموعد بساعة، كان هناك.

وعاد إلى لفافاته يحرقها بعصبية وثورة مكبوتة... ثم يطفئها ليشعل غيرها.

ويرشف القهوة ويمعن النظر في ساعته التي دب الشلل في عقربيها فتمنعا عن الحركة. ومر بائع الصحف، استوقفه، واشترى منه مجلة. حاول القراءة فلم يستطع...

لقد تحولت الكلمات في عينيه إلى نقاط لا الفة فيها ولا تجانس... وعاد إلى اللفافات، والساعة، والقهوة، والمجلة.

ومرت الساعة ببطء قاتل، وتسمرت عيناه بالباب... فلم تدخل. وانتقلت العينان تتجولان في الشارع، تتفحصان المارة، ولكنها لم تكن هناك... واغمض عينيه في ألم.

لن تأتي.

من يدري؟ قد تأتي بعد دقائق!!

ومرت الدقائق، وقد اكسبته خبرة تفتيش الشوارع وهو بعيد عنها، ومرت ساعة ثانية. ولم تأت... لن تأتي إذاً.

هل ينهض ويترك المكان؟
ولكن الذي انتظر ساعتين، بإمكانه أن ينتظر ربع ساعة أيضاً.
وفيما هو بين ترك المكان والبقاء فيه... رآها تدخل.
لكنها كانت انسانة غير التي عرف...
ثيابها تختلف كلياً، ابتسامتها تختلف. معاني عينيها تختلف.
ولم يفكر طويلاً لمعرفة السبب.
لقد كانت المنتصرة عليه في الجولة الأولى...
ولكنه سيعرف كيف يكسب الجولة الثانية وكل الجولات التالية... ونهض عن كرسيه مرحباً وقبل ان يفوه بكلمة قالت:
ـ لقد قررت أن أسهر معك الليلة...
ـ كيف اتخذت هذا القرار؟
ـ أريد أن أمتحن تجاربي السابقة، لارى إن كنت أشعر بالخوف في الحرية المكتسبة...
وامعن النظر فيها ثم قال:
ـ يسرني أن أكون حقلاً لتجاربك في هذا المضمار...
ورشفا القهوة، وتحدثا حديثاً عادياً جداً، عن المجلة التي يحتفظ بها. هل هو من قرائها، وأي باب يعجبه فيها ولماذا؟
كان يختلق الأجوبة... ويحاول أن يقنعها إنه قرأ المجلة، لئلا تفهم من ذلك موقفه المخجل كرجل، في ساعة انتظار مملة.
ثم تحوّل الحديث الى الطقس... والجامعة... والعمل وأوقات الفراغ. وكانت تتحفظ في أجوبتها... وتحاول أن تسمع منه الكثير فأدرك غايتها، ثم نظر إلى ساعته وقال:

ـ لماذا لا نغادر المكان؟

ـ إلى أين.

ـ إلى السهرة.

ـ لا بأس. أين تريد أن نقضي السهرة؟

ـ حيث تشائين.

ـ أي مكان ترشح؟

ـ ما رأيك «بالكاف دي روا»؟

ـ ممتاز. وتوجهت سيارته إلى «الكاف دي روا»، فدخلا المكان وكان الوقت مبكراً، والمكان لم تدغدغه بعد انفاس الساهرين...

واقتادها إلى طاولة في زاوية معتمة، وشربا الكأس الأولى والثانية...

ثم قاما إلى حلبة الرقص. يجمعهما لأول مرة لحن دافىء. كانت ترقص كأمرأة لها عينان ترقبان الرجل الذي تراقصه لأول مرة...

وجسد يثبت صحة هذه المراقبة. وكان يرقص كرجل، ضمت ذراعه فريسة ضارية ولكنها لا تؤذي، وفي رأسه يدور سؤال يحاول إيجاد أجوبة لها.

وعادا إلى الطاولة، ثم إلى الحلبة...

والوقت يمضي... ويمضي.. والليل يستر ويستر.

وهما ينتقلان من الطاولة وإليها، حتى تبخر الوقت وأخذت طلائع الساهرين بالإنصراف...

ومدّ يده إلى يدها فمسحها عليها، ثم احتواها في راحته وضغط برفق... وانت له أنّة تنبىء بغير الألم.

فدعاها إلى مغادرة المكان.

وضمتهما سيارته من جديد... فقال:

- إلى أين أوصلك؟

- إلى البيت...

- ما رأيك بنزهة قصيرة في السيارة قبل البيت؟

- لتكن النزهة على طريق البيت.

وشقّت السيارة طريقها بتؤدة، كأنما تسير على أرض مزروعة، لولا هدوء زحفها... وعلى كورنيش المنارة، كان القمر قد أطلّ من وراء غيمة، ليراقب محبين لم يجتمع منهما غير جسدين... وفي حلبة رقص.

ودنا منها بشفتيه...

فابتسمت...

ودنا أكثر...

كانت سيارته قد توقفت كلياً عن السير، فتحولت يداه عن المقود إليها.

ولما افلتت شفتاها من شفتيه، عاد إلى اسرهما من جديد...

وراحت يده اليسرى تتحسّس كتفها كأنها تبحث عن شيء

ضائع. وتمادت اليد على الكتف العارية، وانزلقت تحت الإبط، فيما راحت يمناه تعبث بخصلات شعرها المرتب...

وتاهت يده اليسرى عن طريقها. فتأوهت في غنج.. وتمنعت.

ولكنه تمنع التشجيع.

فعاد إلى شفتيها يقبلهما، ويعتصر جسدها بين يديه.

وابتعدت عنه طلباً للراحة... فقال لها:

ـ كل ما في الكون جميل... لولا هذه اللحظات العابرة لما كان لحياتنا قيمة...

ـ بل قل، لولا حرية الإنسان، لما كانت هذه اللحظات. تصور لو كنت الآن في البيت، تقيدني العادات وتربطني التقاليد...

ـ لو كان ذلك، لكنت الآن في فراشك الوثير... تنعمين بالدفء والراحة وتستسلمين لحلم جميل.

ـ لست أعيش في الأحلام، أنا واقعية...

واثارته كلمة «واقعية»...

قد تكون تبكيتاً على سكوته، أو إثارة لتصرفاته... فما معنى الحديث في هذا الوقت من الليل، وهما في سيارة لا رقيب فيها؟

وعاد إلى تقبيلها...

وحاول أن يتخلص من فستانها، إذ بيد تمتد من نافذة السيارة وتضيء نور مصباح كهربائي يدوي.

والتفت إلى النافذة ليتعرف إلى هذا المتطفل، فغرقت عيناه في النور القوي..

وسأل مستنكراً:

ـ من أنت؟

«شرطة الآداب».

ـ ماذا تريد؟

ـ أن اؤدي وظيفتي...

ـ وما شأن وظيفتك بي؟

ـ شأن وظيفتي بكما معاً... من حضرتها؟

ـ صديقتي...

ـ تفضلا إلى سيارة الجيب.

ـ لماذا؟

ـ تفضلا!

وانبرت الصديقة تتكلم:

ـ ما شأن الآداب وبوليس الآداب بصديقين في سيارة؟

إنه يوصلني إلى بيتي...

ـ سيدتي.. السيارة واقفة.

ـ كنا نتنشق هواء البحر المنعش.

ـ تفضلا إلى سيارة الجيب.

ـ السنا أحراراً في تصرفاتنا؟

ـ ستعرفين ذلك في المخفر.

وفتح باب السيارة وأمسك الرجل بذراع فؤاد محاولاً انزاله منها بالقوة.

ولما أدرك فؤاد إن لا مجال للتهرب من البوليس العنيد، نزل من تلقاء نفسه.

وتبعته صديقته.

ولما أخذا مكانهما في سيارة الجيب، اطلقت الصديقة قهقهة عالية وقالت:

ـ هل فهمت الآن معنى الحرية في هذا البلد؟ لا تسلني بعد اليوم لماذا لا أمارس حرّيتي..

ـ لا تخشي... سيطلقون سراحنا حال وصولنا إلى المخفر.

ـ مجرد اقتيادنا إلى المخفر معناه ضغط على حرياتنا ومعناه تقييد... ومعناه أن حريتي ليست لي، وأن لا حق لي بالتمتع بها ما دمت أعيش في هذا البلد... التقاليد والعادات وكلام الناس وبوليس الآداب والمخفر إلى آخر هذه الأسطوانة، وتسأل الفتاة، مطلق فتاة، أن تمارس حريتها كإنسانة مثقفة تعرف كيف ترسم الطريق إلى غدها وكيف تعبده إلى مصيرها.

ووصلت السيارة إلى المخفر، فهبطا منها، وتبعا البوليس إلى إحدى الغرف، حيث جلس بوليس آخر، نظر إليهما ملياً، وحدق في وجهيهما كأنه يحاول أن يتذكرهما، ثم خاطب الشاب:

ـ ما اسمك؟

ـ فؤاد

ـ عمرك؟

ـ سأستعين بتذكرة الهوية.

وتناول البوليس تذكرة هويته، ثم ملأ بعض السطور الفارغة في ورقة كانت أمامه، ثم عاد إلى السؤال:

ـ أين كنت؟

ـ أسهر.

ـ أين؟

ـ حيث يسهر الناس، في «الكباريه».

ـ هل اقتادكما بوليس الآداب من «الكباريه»؟

ـ لا. كنا في السيارة على الكورنيش.

ـ فهمت.

ـ ماذا؟

ـ وضعك الشاذ اوصلك إلى هنا.

وسكت برهة ثم قال: ومن هي؟

ـ صديقتي.

ـ ما اسمها؟

ولم تدعه يجيب عنها... قالت: أنا فتاة في الحادية والعشرين، تعديت السن القانونية.

ـ ما اسمك؟

ـ ولماذا تريد أن تعرف اسمي؟ هل انت مسؤول عن مستقبلي أكثر من أهلي ونفسي؟ لقد سمح لي أهلي أن أتصرف كيفما شئت... ولي رصيد من الثقافة يؤهلني أن أعرف صالحي وأن أختار طريقي في الحياة.

ـ لقد أسأت الاختيار.

ـ لا...

ـ وهذا سبب وجودك هنا.

ـ من قال إنني أسأت؟ من؟

ـ وجودك في السيارة مع إنسان... صديق.

ـ هل يعتبر ركوب السيارة جريمة عندكم؟

ـ لو لم تكن عنده سيارة لكنتما على الشاطىء... المكان لا يهمنا يا سيدتي بقدر ما تهمنا ملابساته، تذكرة هويتك من فضلك.

وضحكت عالياً ثم قالت: لا احملها.

كان في ضحكتها ألم... وانقباض... ومحاولة لاستجماع القوة...

وسألها بعض الأسئلة، ثم وجه الحديث إلى الرجل:

ـ ما هو عنوانك؟

وكتب العنوان على ورقة ثم قال:

ـ بإمكان السيد أن ينصرف، وسنستدعيه حين نحتاج إليه.

- وأنا؟

- يؤسفني يا سيدتي أن أقول أن مهمتنا تتعلق بك أكثر مما تتعلق به.

- ماذا تعني؟

- ستعرفين.

- بل أريد أن أعرف الآن.

- قبل كل شيء يجب أن نتأكد...

والتفت إلى زميله الذي قبض عليهما وقال:

- خذها إلى المستشفى.

- لست مريضة، ولن أذهب إلى المستشفى.

- الطبيب يقرر إن كنت مريضة أم لا...

- ولكنني لا أشعر بأي ألم.

ولم يترك لها مجالاً للحديث، فطلب من زميله أن يأخذها إلى المستشفى وأضاف قائلاً:

- إذا كانت بحاجة إلى البقاء في المستشفى، اتركها هناك. فسنعطيها الإجازة فيما بعد. وطلب منها البوليس أن تتبعه، فرفضت.

ونظرت إلى فؤاد نظرة استغاثة، لكنه اطرق رأسه وغابت نظراته في أرض الغرفة.

وأعاد عليها البوليس قوله من جديد... فرفضت أن تتبعه.

فاقتادها بالقوة إلى سيارة الجيب...

* * *

وصلت السيارة يتبعها بوليس الآداب.

وبدلاً من ان تدخل السيارة، توقفت.

لقد تسمرت رجلاها في الأرض فلم تقو على تحريكهما.

لقد مر بخيالها المستقبل، كل المستقبل في لحظة.

وكان قاتماً، أسود، بشعاً وستصل إلى هذا المصير لو دخلت السيارة، لو تحركت رجلاها متراً واحداً...

فاصرت على البقاء حيث هي... وليكن ما يكون.

وادرك البوليس «المرافق» ما كان يدور في رأسها من أفكار. فاستعان بانسانيته على بزته الرسمية، وقال:

- ارجوك يا آنستي تفضلي إلى السيارة...

ولم تجب.

لم تفهم كلماته، لأنها لم تسمعها...

وكيف تسمعها وهي تؤدي بها إلى المصير الذي تكره؟

وعاد البوليس يستحثها من جديد، ولكن دون جدوى...

أخيراً وضع يده على ساعدها، يهزها برفق ويقول:

- أرجو ألا أضطر إلى استعمال القوة معك، يا آنستي... أنت تدركين أنني موظف، وعلي أن أقوم بواجبي، سيسرني بالطبع أن اسلك معك الطف الطرق، ولكن...

ولم يتم كلامه.

لأنها اتجهت نحو السيارة... ودخلتها.

ولما استلم البوليس مقود السيارة، كانت هي مشغولة عنه بمسح دموعها.

كل شيء في باحة المستشفى كان صامتاً... يوحي بالرهبة.

ونزلا من السيارة وتوجها نحو الباب الداخلي. وعلى الباب استقبلتهما ممرضة، فهمت للحال قصد البوليس وعرفت شخصية الفتاة.

نظرت إليها تتفحص وجهها الجديد عليها... ثم التفتت إلى البوليس قائلة:

ـ الطبيب غير موجود.

اطرق البوليس لحظة ثم قال:

ـ فلنعد إلى السيارة إذاً.

وهذه المرة، عادت معه بدون مقاومة، بل كانت تسبقه إليها، لتتخلص من رؤية المستشفى ورائحة الدواء الهاربة من كل نافذة فيها. وعاد بها إلى المخفر.

وهناك رأت فؤاد ما زال بانتظارها، يحرق السجائر في محاولة فاشلة لتهدئة أعصابه.

عجب للسرعة التي عادا بها، وتأمل أن يطلق سراحها حالاً، ليوصلها إلى البيت في الشياح.

لكن المسؤول عن المخفر، رفض اطلاق سراحها، وأصر على ان

تبقى في المخفر حتى الصباح، ريثما يعود الطبيب إلى مستشفاه ليفحصها.

قال لها أنه يطبق القانون فقط.. وليس مسؤولاً عن الذي وضعه.

وتساءلت في نفسها لماذا يحافظ الناس على القانون؟ للمرة الأولى في حياتها تسأل نفسها هذا السؤال.

لطالما سألت العكس: لماذا يحافظون؟ وتقدم منها فؤاد يطلب عنوان بيتها في الشياح...

ترددت أولاً ثم اعطته العنوان.

وذهب فؤاد إلى الشياح، فيما اقتيدت هي إلى غرفة صغيرة أقفل البوليس باب الغرفة، وعاد إلى مزاولة عمله.

الغرفة صغيرة على جسدها، لكنها لن تقو على سجن افكارها...

لقد سبحت الأفكار بعيداً جداً إلى خارج الغرفة، وخارج المخفر، إلى العالم الواسع، الكبير.

الحرية المكتسبة من الأهل يقيدها القانون.

هل اخطأ الأهل؟ أم اخطأ القانون؟ أم كلاهما على صواب؟

إذاً هي التي اخطأت!

كيف؟

ما الخطأ الذي ارتكبته؟

انوثتها لها... ولقد حافظت على الأنوثة.

الأمر أعمق من ذلك... بنظر بوليس الآداب على الأقل. ليتها مرضت أو كذبت أو خلت بموعدها تلك الليلة، لكانت الآن تنعم في فراش وثير بدلاً من الوقوف في تلك الغرفة الصغيرة...

وانتقلت بالتفكير إلى ناحية أخرى. لماذا قبض عليها وترك سراح صديقها؟ أليسا شريكين في «الجريمة»؟

جريمة القبلة؟

فكيف يطلقون سراحه إذاً، وتبقى هي في السجن الصغير؟

ولم تفهم السبب... ولم تدرك حلاً للأحجية. كانت تفضل بالطبع أن يكون كل منهما حراً طليقاً. وكانت تفضل بعد ذلك ان تكون هي الحرة الطليقة، ان كان لا بد من القبض على احدهما. أما أن تكون النتيجة على ما هي عليه، فلا.. ولكن هذا التصرف، رغم غرابته، الطف من سجنهما معاً...

لا بدّ من ان يساعدها.

كيف؟

ولماذا سأل عن عنوان البيت؟

هل ليتصل بها تلفونياً يستعلم عما حدث معها؟

فكرة بعيدة.

لماذا إذاً؟

وكيف يساعدها؟

سيحاول ولا شك ولكن من يضمن النتيجة، والدنيا ظلام والناس نيام؟

وماذا يكون من أمرها إذا لم يستطع مساعدتها؟

ستقاد من جديد إلى المستشفى، لتكون تحت رحمة طبيب...

وماذا بعد ذلك؟

وفاجأتها فكرة مؤلمة، زادتها قلقاً.

ستصدر الصحف تحمل خبراً فيه القليل من الصدق والكثير من الكذب، تلميذة جامعية تقضي أول الليل في كباريه، وآخره في سيارة على الكورنيش؛ وتستقبل نور النهار في المخفر. ستعرف إدارة الكلية، وستعرف رفيقاتها وكل الناس...

ولكن هي لم تأت عملاً فاسقاً، فلماذا يتألم الأصدقاء ويشمت الشامتون؟ ليتهم يعرفون الحقيقة!!

وماذا يقول والداها؟

انهما يعرفان ابنتهما ولكن الجيران؟

لطالما كانت موضوع حديث الجيران ولم تهتم... ستهتم الآن. فللجيران في لبنان عيون تخترق أبصارها الجدران، وآذان تحوّل حفيف الشجر إلى كلام، وخيال واسع اتساع البحر المتوسط. ولم تستطع أن تتابع سلسلة أفكارها لأنها تعثرت بدمعة، وتبعتها دموع، دموع الحظ، وليست دموع الندم...

كل هذا وفؤاد في الشياح يحادث والديها، ويقص عليهما ما كان. كان أضعف من أن يذكر الواقع، ولو كان قبلة...

لقد بدت القبلة في نظره جريمة.

لست أدري لماذا قبض عليها.

كنا نسهر معاً وسرنا بسيارتي على الكورنيش...

فجأة أطل القمر من مخبئه وراء الغيوم، فأعجبنا المنظر، واوقفنا السيارة لنتمتع به، ووصل البوليس فاقتدانا إلى المخفر، وابقوها هناك.

يجب ان نساعدها فهي فتاة بريئة..

امتقع لون وجه الوالد... ولم يفه بكلمة.

أما الوالدة فقد انقلبت إلى بركان ثائر:

ـ أين هي الآن؟

ـ أين تركتها؟

ـ وما لكما وللقمر؟

ـ ولماذا تدخل البوليس، وما يعنيه؟

ـ أنت يا أستاذ سبب مصيبتنا.

ـ لطالما سهرت ابنتي حتى الصباح، وعادت إلى البيت دون مشاكل، ومخفر، وتوقيف...

ـ أوقفوها اليوم، لأنها كانت معك. لقد فهمناك جيداً أنت لا توحي بالنظافة يا استاذ... بل أنت شاب ساقط متهور...

لا يمكن القبض علي فتاة، لمجرد إنها تأملت القمر، هذا حديث لا يصدقه حتى الأطفال... ولا تصدقه أنت...

ـ تكلم... ماذا حدث؟ هل...

وبرزانة فيها عمق الصوت واضطراب الفكر وسرعة التدبير، قال الوالد:

ـ سأذهب حالاً إلى المخفر... هل تسمح بمرافقتي؟

وقبل أن يصلا السيارة، كانت والدتها قد اتخذت مكاناً فيها وهي تثرثر لوحدها...

وانطلقت السيارة.

ـ الثلاثة الذين ضمتهم السيارة على غير موعد، لزموا الصمت... لقد كان الوالد يفكر في كيفية تخليص ابنته من سجنها...

وكانت الوالدة تفكر في عاقبة هذا السجن.

أما فؤاد فكان يقود السيارة وهو أكثر ارتياحاً، لأن شخصين غيره، حملا عنه بعض هذا الهم.

ولكن هذه الراحة لم تمنع فكر فؤاد عن الشرود...

هل يصيب فتاته سوء؟ لماذا؟

هي ولا شك بريئة من تهمة العار...

سيثبت ذلك، هو بنفسه، والطبيب بعد الفحص، وصديقاتها وتريحه الفكرة...

لكنه يعود إليها من جديد، بتفكير سلبي... وإذا لم يستطع هو أن يثبت ذلك، وإذا أثبت الطبيب العكس، وإذا تنكرت الصديقات... ماذا يحدث؟

ستقع الملامة عليه..

هو شخصياً لن تؤثر فيه هذه الملامة...

سيعرف كيف يتخلص من لسان أمها... ولكن الفتاة مسكينة، لأنها بريئة..

وجمح به تفكيره، فإذا مقود السيارة يتخلص كلياً من رقابته... وإذا السيارة تكاد ترتطم بعمود كهربائي...

وللحال اوقفها.

بينها وبين العمود قيد انمله.

واهتز ركاب السيارة لتوقفها السريع...

فقال الوالد:

ـ كن حذراً.

أمّا الأمّ، فقد وجدت لها طريقاً جديداً تسلكه إلى تأنيب فؤاد. ولم تسكت عن كلامها إلاّ عندما توقفت السيارة أمام المخفر.

قابل الوالدان ابنتهما.

البنت التي لها والدان يحنان عليها، ويرأفان بها، ويزورانها في مثل هذا الوقت، لا يمكن ان تكون كما ظن بوليس الآداب...

ولكن لا بد لها من مقابلة الطبيب...

لقد أصرّ «رئيس المخفر» على ذلك، وأضاف قائلاً:

ـ إذا اثبت الطبيب نظافتها، اطلقت سراحها. ولكن اين الطبيب؟

واتصل الوالد بالمستشفى، ثم ببيت الطبيب، ورجاه ان يسرع نحو المخفر، لا ليؤدي واجباً وإنما ليخدم الإنسانية، ليساعد على تخليص فتاة من تهمة مشينة...

وحضر الطبيب.

واختلى بالفتاة دقائق، تحدث بعدها مع رئيس المخفر.

وتقدم الرئيس من الوالد هامساً، لقد اثبت الطبيب براءتها.

* * *

مضت أسابيع وفؤاد لا يسمع من فتاته كلمة...

هل اصبحت تخجل من مقابلته؟

لا... القضية أكثر من خجل، وإلا لاتصلت به تلفونياً، هل قاطعته؟

لماذا؟

ما ذنبه هو؟

قد يلومه كل الناس، كل من عرف بالقصة، إلا هي... ولماذا تلومه وهي عارفة بخفايا القضية... وترقبها...

وطال ترقبه دون أن تقع عينه عليها.

يجب أن يراها... يجب ان يحادثها... يجب...

اتصل بها تلفونياً إلى المدرسة، فقيل له أنها متغيبة.

واتصل في اليوم الثاني، وفي الاسبوع الثاني والجواب واحد لم يتغير... إنها متغيّبة!

لماذا هذا التغيب؟

قد يفهم معنى انقطاعها عنه، ولكن انقطاعها عن المدرسة أمر خطير.

هل تكون مريضة؟

وما مرضها؟

هل هي عقدة ولدتها فيها تلك الليلة؟

إذاً، وإلى حد بعيد، هو مسؤول عن العقدة، وعليه ان يفكها.

كيف؟

لم يفكر طويلاً... انه يعرف اسم الوالد، والبيت. وبعد لحظات، كان يعرف رقم تلفون البيت، فاتصل بها...

وسمع صوتها.

كان يائساً حزيناً...

هو صوت إنسان يعيش دونما رغبة في الحياة. صوت إنسان مكره على العيش. وما كاد يقول «هلو» وسمع صوتها، حتى غير خطته، فادعى إنه مريض، وإنه يعاني من ألم شديد، قد يقضي عليه، وطابت له الفكرة، فقال:

ـ أنا فؤاد..

قالها بصوت يخنقه الألم...

ومن طرف الخط الآخر، سمعها تقول: ما بك يا فؤاد؟

ـ معدتي تتقطع.

ـ لماذا، هل أنت مريض؟

ـ عفواً... لا أستطيع أن أتكلم. أنا بحاجة إلى طبيب، ولكنني قبل اتصالي بأي إنسان في الدنيا، أحببت الإتصال بك، لاسمع صوتك، فمن يدري قد يكون الصوت الأخير الذي يطرق مسمعي...

ـ فؤاد... ما معنى هذا الكلام، ارجوك... لا تقل هكذا.

ـ لست بحاجة إلى الحياة، إنني اكره الحياة.

ـ فؤاد، ارجوك لا تقل ذلك... الحياة حلوة، جديرة ببقائنا...

سأحضر حالاً مع طبيب. اين تسكن؟

وأعطاها عنوان غرفته، والح عليها ان تتناسى الطبيب...

وبعد جدل، اقتنعت أن طبيباً يقيم في نفس البناية، ويمكن استدعاؤه حال وصولها.

ما كاد يعيد السماعة إلى مكانها، حتى أسرع نحو غرفته... ولم تمضِ دقائق حتى كانت هناك...

كانت حزينة ملهوفة...

ولما ابصرته جالساً على المقعد الوثير، سليماً معافى، صعقت، نهض عن مقعده وتناول يدها بلطف، وقبلها.

ـ لقد زال ألمي والحمد الله... كنت على يقين ان زيارتك ستعيد لي حياتي.

ـ أنت محتال...

أرجوك، لا تقولي هذه الكلمة... أنا عاشق... كنت أدري إنها

الطريقة الوحيدة لرؤيتك... سألت عنك في المدرسة عدة مرات، وترقبتك في «الإيغلزنست» دائماً، ولكن دون جدوى. كنت بحاجة إلى رؤيتك، لأعرف سبب اختفائك عني، وعن المدرسة، وعن المجتمع.

افهميني أولاً، ثم اجيبي..

نظرت إليه طويلاً، ثم جلست على طرف المقعد، واشعلت لفافة وقالت: عاهدت نفسي ألا اقابلك، وألا أقابل أي إنسان، لأنني حكمت على نفسي بالسجن داخل البيت، الحرية التي حدثتك عنها فيما مضى، كانت زائفة... مستترة ببرقع الأيام.

وقد انكشفت لي حقيقتها، فلم يعد لي فيها مبتغى.

أنا امقت نفسي وأمقت الحرية، وأمقت الناس.

وأمقت نفسي لأنني لم استطع أن أسير في ركاب الناس. ظننتني إنسانة أخرى، بإمكانها ان تغير المفهوم الاجتماعي في البلد...

وأمقت الحرية لأنها كبلتني، تصور ان تكون قيودك من معدن الحرية.

وأمقت كل الناس لأنني أشعر أنهم من غير جبلتي، أمقتهم لأنهم متعلقون بالتوافه، بالقشور، بالبائد من التقاليد...

ولم تستطع أن تتابع حديثها فاجهشت في البكاء... وهي تقول بصوت تهزه الغصة: لا أريد أن أعيش، أكره الحياة، كلماتك التي قلتها على التلفون قبل دقائق هي كلماتي... هي نفسيتي... لقد ضعفت أنا ولم أصرّح بها، فنطقت بها أنت.

ودنا منها، يمسح يده على شعرها ويقول:

ـ سأجيبك بنفس كلماتك، الحياة حلوة.. جديرة ببقائنا... ارجوك، كفّي عن البكاء.

وضمها إليه.. يمسح دموعها بقميصه.

وفيما الدموع تغسل عينيها والقميص معاً، سمعها تجهش في البكاء. تأمل وجهها، فإذا هو تعبير عن ألم عميق... وعن صدمة لم تستطع أن تتحملها.

تأمل اهتزازات شفتيها...

والدموع التي تجمعت على خدّيها بحيرة كبيرة...

والأنف الدقيق الشامخ في أنفة، يجسد ماضيها في حاضرها.

طلب إليها أن تكف عن البكاء...

رجاها وتوسّل إليها...

وحاولت.

لكن الدموع هذه المرة لم تكن دموع امرأة عادية، تتوقف عند الطلب وتنهمر حيثما تشاء.

كانت دموعاً تتدفق من ذكرى... والذكرى اليمة، بل مجموعة من اللوحات الحديثة العهد ولم تستطع الدموع غسلها.

واشعل لها لفافة، فلم تستطع التدخين.

وفكر كيف يستطيع ان يوقف دموعها، للمرة الأولى في حياته يجد نفسه يفكر في هذا الموضوع. لم يكن الحل صعباً..

احضر كوب ماء ليغسل عينيها، فتوجهت إلى الحمام تغسل وجهها وتعيد إليه رونقه... وعادت...

عادت تبتسم ابتسامة مفتعلة، لقد بدأت تمثل عليه، فلم يعبأ، لأنها كان تحاول التمثيل على نفسها أيضاً..

وتمكنت هذه المرة من إشعال لفافة، فدخنتها بكل هدوء... وخشي أن يحادثها، لئلا تعود الذكرى إلى عينيها من جديد...

ومرت فترة صمت، ثم قالت: كنت بحاجة إلى البكاء... اشكرك لدعوتي لأنك ارحتني... الآلام التي حبستها تخلصت منها الآن، بالدموع.

ووجد له مجالاً ليقول: حسناً إنها اراحتك، عديني الا تعاودي البكاء بعد اليوم...

قالت:

ـ لا يمكنني أن أعد ولا أفي..

ـ ولماذا لا تفين؟

ـ لأن الحياة في نظري لوحة علاها غبار الزمن، ولا يمكنني أن أتمتع بجمال هذه اللوحة إلا إذا جلوتها.

ـ أطلب منك ألا تبكي لاسبوعين فقط، إذاً... فخلال هذه الفترة القصيرة، لن يتراكم غبار الزمن...

ـ لأسبوعين؟ هذه المدة الطويلة؟

سأحاول على كل حال. سأحاول أن أنسى نفسي ومجتمعي وحياتي...

- بل انظري دائماً إلى الغد. انظري إليه وأصرّي على استقباله بابتسامة، ورضى وروح مرحة.

- سأحاول.

- هل لك بكأس تريحك الآن؟

- لا... أنا لا أشرب..

- عنيت أنك لا تشربين في هذا الوقت!

- بل عنيت أنني لا أشرب أبداً.

- لماذا؟ منذ أيام كنا نشرب معاً.

- كان ذلك حلماً وانقضى... وأفقت على نفسي... على حقيقة نفسي، وعليّ أن أداري هذه الحفيقة لأنني أنثى.

- لا أفهمك!!

- بالماضي كنت إنسانة غير الإنسانة التي تراها الآن أمامك... كنت لا أعبأ إلا بنفسي، رغم ما قيل لي، ورغم ما سمعت. بالماضي كنت اؤمن ان للفتاة حقوقاً يجب أن تعيشها، واليوم اؤمن بخطأ نظريتي السابقة.

وخشي ان يؤدي الحديث إلى نفس النتيجة، الدموع... فأسرع ينتشلها إلى موضوع آخر فقال: متى تعودين إلى الجامعة؟

- لن أعود

- لماذا؟

ـ لأنني لست بحاجة إلى الدراسة. نلت منها نصيبي. الحياة مدرستي. التجارب دروسي..

وخشي من جديد ان يصل إلى نفس النتيجة، فحدثها عن الملابس والاتيكيت وكل المواضيع الأخرى التي تهتم بها المرأة، وفي كل مرة كان يضطر إلى إقفال الموضوع خشية التدهور.

ونظرت إلى ساعتها وقالت: ـ لقد تأخرت...

قال: هل انت مرتبطة بموعد؟

ـ نعم. مع نفسي... يجب أن أعود إلى البيت.

ـ لحظة، سألبس معطفي لاوصلك.

ـ شكراً يا صديقي... سأذهب لوحدي..

ـ لماذا؟ تخشين ان يرانا الناس معاً؟

ـ أخشى كل شيء. أخشى الناس و«بوليس الآداب». واخشاك أنت، بل أخشى نفسي.

ـ هل تسمحين بسؤال واحد قبل انصرافك؟

ـ تفضل.

ـ متى نلتقي؟

ـ ولماذا نلتقي؟ تريدني أن ازيد في بؤسك؟

ـ بالعكس... ثم من قال إني بائس؟

ـ لا تحاول التهرب من الحقيقة... انت بائس لأنك صديقي..

وقبل ان يفتح لها الباب، قال: هل تسمحين لي بالتحدث إليك بالتلفون؟

ـ كن واقعياً يا فؤاد... ماذا يجديك الحديث على التلفون؟

ـ ارجوك... قلت انني اليوم إنسانة غير التي عرفتها سابقاً... الواقعية في نظري هي التمتع بقيود المجتمع تعصر زندي، ولساني، وجسدي، وحريتي... الإنسان لا يمكن أن يحيا لنفسه. الفرد يحيا من أجل المجتمع... قبل ان يحيا من أجل نفسه، ومجتمعي لفظ حكمه، وعليّ أن أتقبل هذا الحكم.

وانصرفت.

بعد ساعة، كان يتصل بها تلفونياً من جديد.

انتظر رتابة جرس التلفون الآخر يعلن عن مخابرة... إلى أن قضى على هذه الرتابة صوت الآم.

ـ ألو..

ـ الآنسة موجودة من فضلك؟

ـ من يطلبها؟

ـ صديق...

ـ الآنسة ليس لها اصدقاء يخافون من ذكر اسمائهم.

ـ عفواً أريد أن أعرف إذا كانت موجودة في البيت...

ـ ليست موجودة.

واعادت السماعة إلى مكانها.

وانتظر ساعة أخرى وعاد إلى محاولته الأولى... وفي هذه المرة أيضاً كانت الوالدة تجيب. عرف فؤاد صوتها، فأسرع هو إلى قطع المخابرة تهرباً من الوالدة الكريمة.

واحتار في أمره. كيف السبيل إلى التحدث معها؟

كان يشعر ان محادثتها بالنسبة إليه تعني الشيء الكثير... فهو ولاول مرة في حياته يقضي يوم الإجازة في البيت، أو القسم الأكبر من يوم الإجازة.

ولكن لماذا الإصرار على محادثتها اليوم؟

لماذا لا يتناسى الأمر، لماذا يلاحقها إلى هذا الحد، ومن هي بالنسبة إليه؟

اليست مجرد فتاة عابرة في حياته؟

إذاً لماذا يفكر فيها؟

وقرر ان ينساها إلى الأبد..

ويكتفي بأن يضيف اسمها إلى لائحة صديقاته القدامى...

وخوفاً من ان يضعف قراره، ترك البيت واتجه نحو الشارع يبحث عن أي إنسان يعرفه.

توجه إلى «الايغلزنست» بعد أن ابتاع صحيفة..

وسار إلى الطاولة إياها... الطاولة التي اعتادت أن تجمعهما كل مرة...

وغاب في الماضي، يستعيده على مهل، خشية ان ينقضي الماضي بلحظات.

لقد اصبح يميل إلى مجالستها، والتحدث إليها عن طريق الذكرى. وادرك ذلك، فتساءل:

ـ هل هو الحب؟

وقبل أن يجيب، كان يتوجه إلى التلفون ليتصل بها للمرة الثالثة.

طلب الرقم وانتظر...

علت نبضات قلبه، حتى خالها مطرقة في صدره... وأخيراً ارتفعت السماعة من طرف الخط الآخر. وخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاس مبهورة تأتي إليه من خلال السماعة.

وبصوت يقرب من الهمس قال:

ـ هالو...

ولم يسمع الجواب،

وقال مرة أخرى:

ـ هالو..

وجاء صوتها راجفاً يجيب:

ـ هالو. من... فؤاد؟

ـ نعم فؤاد يا ظالمة...

ـ ظالمة... أرجوك ان لا تقسو بحكمك عليّ... أنا مظلومة!

ـ ظروف طارئة هي التي ظلمتك؟

ـ انها ظروف ثابتة وليست طارئة.

ـ اؤكد لك انها ستزول.

ـ متى... عندما أصبح في خريف العمر؟

ـ إن الخريف لن يدب إلى عمرك. أنت ربيع دائم.

ـ وددت لو أصدق جزءاً مما تقول.

واصطنع الغضب وهو يجيب:

ـ ماذا، اتتهمينني بالكذب!

ـ لا وإنما اتهمك بالنفاق.

ـ لم لا تقولي لي... اللباقة؟

ـ ما الفرق بين اللباقة والنفاق؟

ـ سأخبرك عندما نلتقي...

ـ لقد اتفقنا على ان نلتقي؟

ـ قررت أن أفسخ الإتفاق.

ـ هذا قرار شخصي لست ملزمة به.

ـ ان العاطفة أقوى من كل قرار.

ـ وعاطفتي تقول لي... ابتعدي عنه.

ـ انت تخدعين نفسك.

ـ على العكس، لأول مرة اشعر بأنني صريحة مع نفسي.

ـ هناك خيط رفيع بين الخداع والصراحة.

ـ خيط اراه بكل وضوح.

ـ هل لك ان تريني الخيط.

ـ قد اريك اياه يوماً ما...

ـ غداً

ـ يوما ما.

ـ اليوم مثلاً.

ـ ليس اليوم، ولا غداً، ولا بعد غد... اترك الأمر للظروف.

ـ نحن سنحدد الظروف.

ـ ارجوك لست على استعداد لرؤيتك قبل شهر على الأقل.

ـ شهر... انت قاسية.

ـ قاسية على نفسي، ارجوك دعني استجمع أعصابي المبعثرة قبل أن اراك مرة ثانية...

ـ لا تحكمي على علاقتنا بالاعدام!

ـ أن كانت هذه العلاقةِ لا تحتمل شهراً من الانتظار فمن الأفضل ان تعدم.

ـ أنا أخاف من الزمن. انه عدو كل علاقة!

ـ العاطفة الحقة أقوى من الزمن... بل وأقوى من كل شيء.

ولم يجب.

كان يفكر في طريقة يقنعها بها... شعر بان حياته كلها معلقة على رؤيتها بأسرع وقت...

شعر بأنه مهدد بشهر من الضياع والقلق...

شهر من الحنين وهو لا يقوي على الحنين والضياع والقلق.

لقد تعود منذ سنين أن يجد متنفساً لكل عاطفة تجتاح قلبه، هو بحاجة إلى متنفس. وعاد يقول:

ـ ألا يمكن ان تؤجلي قرارك هذا إلى الغد؟

ـ غداً سأكون في روما.

وصرخ: روما!!

ـ نعم لقد قررت أن أسافر كي أنسى ما حدث.

وانفجر دفعة واحدة:

ـ إن ما حدث لا يستأهل ان تفكري فيه أكثر من لحظات.

وقاطعته...

ـ أظن أننا قد بحثنا الموضوع أكثر من مرة... وأرجوك أن لا تذكره مرة ثانية.

ـ وهل ستنسيك روما؟

ـ على الأقل استطيع هناك ان استرجع إحساسي بحريتي كفتاة.

ـ انت حرة!!

ولم يزد كلمة واحدة.

واقفلت التلفون وهي تقول بالفرنسية: إلى اللقاء!!

وعاد إلى المائدة وهو يشعر بأنه قد خسر الجولة الأولى في معركته مع الفتاة اللبنانية. أو على الأصح... لقد شاء القدر والظروف ان يخسر معركته الأولى..

وشعر أيضاً بأنه ليس على استعداد لأن يخوض معركة ثانية. كفاه جراح المعركة الأولى.

وتحسس قلبه بيديه ليرى إذا كان ما زال هناك أم أنه قد ذهب مع الهاربة إلى روما...

ولاستغرابه الشديد وجده في مكانه، شاباً قوياً فتياً كما عهده دائماً... فقرر ان يستغل هذه القوة وهذا الشباب من جديد، فقرر ان يحيا حياته القديمة مرة أخرى.

حياة الليل وحياة نساء الليل...

الحياة التي شاء ان يتركها إلى الأبد فإذا بالأحداث تعيده إليها مرغماً...

وماذا يفعل بلياليه، والرفيقة التي اختارها إنساً لتلك الليالي تطير إلى بلد غريب!!

وماذا يفعل بلياليه التي تعود أن يحياها دقيقة دقيقة ولحظة لحظة... هل ينام؟

وابتسم وهو يذكر قول الشاعر: «فما اطال النوم عمراً ولا قصّر في الإعمار طول السهر»...

واتجه إلى مطعم «فيصل» ليلتقي من جديد برفاق الليل...

وكما تركهم قبل أسابيع وجدهم هناك. لم يتغير شيء... نفس الأشخاص، ونفس الحديث، ونفس البرنامج...

واشترك بالحديث، ثم انطلق ليشترك في البرنامج، وكالعادة تألف البرنامج من جولة على حانات الليل واستقرار في كباريه...

واستقروا حول زجاجة وسكي في «الكاسبا» وارتفعت ضحكاتهم تملأ المكان ضجيجاً وعربدة...

وفجأة... اختفت الضحكة في فمه، وماتت العربدة في حلقه... فقد شاهد صديقته القديمة «جون» ترقص مع مطلقها جاره «مايك»!!

والتقت اعينهما... وحدّق في وجهها... وحاول أن يشير إليها... فتجاهلته...

وبدافع غريب نهض من مكانه واتجه إلى حلبة الرقص ليكلمها...

* * *

وأبصرته يدنو منها وهو بين مترنح بفعل الخمرة، وصاح لرؤيتها المفاجئة فأدارت ظهرها له في لباقة، وهي تتابع رقصتها الحالمة.

ولم يتراجع.

بل تبعها، ليقول لها في عينيه: لن أتراجع... أريد ان أكلمك.

انتظر عند حافة الحلبة، حتى انتهاء المعزوفة، وقبل أن تبدأ الأوركسترا بمعزوفة أخرى، كان يحادثها، قال:

ـ متى عدت؟

ـ الاسبوع الماضي.

ـ تعالي إلى طاولتي لنتحدث.

ـ لا استطيع أن أترك زوجي...

ـ زوجك؟

ـ نعم.

الف فكرة وفكرة.

هل يتبعها إلى الطاولة؟

لا... وقاحة.

ثم انه لو تبعها، فكيف يحادثها أمام زوجها؟

ماذا يقول لها، وما هي السلطة التي له عليها. ولاحظ فجأة ان جميع الساهرين يراقبونه بنظراتهم وهو واقف كالأبله عند حافة الحلبة، فعاد إلى طاولته.

ومن البعيد، أخذ يراقبها...

وادركت أنه يراقبها، فراحت تستفزه... عانقت مايك، وهمست في اذنه كلمات، ابتسما بعدها.

يجب أن يعرف كل شيء عنها..

يجب!

لم يستطع ان ينام تلك الليلة...

فكلما اغمض عينيه في محاولة للنوم، كانت ترتسم أمامه، تعانق وتهمس وتبتسم.

وقام إلى التلفون، غير عابىء بالوقت وراحة الناس، يستعلم عنها. هل طلقت مايك؟ هل ما زالت زوجته؟ هذا أهم ما أراد معرفته. لكن محاولاته باءت بالفشل تلك الليلة. لم يستطع أن يعرف شيئاً.

ونجح بعد أيام.

لقد عرف عنها كل شيء.

عرف ان سبب انقطاع رسائلها عنه عائد إلى اتفاقها مع زوجها من جديد.

وانصت إلى محدثه ينقل بقية التفاصيل بقوله:

في استراليا، هجرت زوجها كما هي عادة المرحلة الأولى التي تسبق الطلاق.

كلاهما كان متحمساً للطلاق...

هي لأنها خانت الزوج. فليس ما يبرر هذه الخيانة لضميرها.

أما الزوج. فقد علم بالأمر... هي اخبرته.

فكان يطالب بالطلاق، ليثأر لاسمه الملّوث.

في هذه الأثناء كانت تراسله، وتعده بالعودةِ إليه ليتزوجا.

لكن الزوج، كان ادمن علي الحياة معها، كما أدمن على شرب الخمرة. لقد أصبحت شيئاً ضرورياً بالنسبة له.

لم يعد يستطيع عيشاً دونها، فاتصل بها يعلمها أنه عفا وصفح، ويسر إليها رغبته في استعادة حياتهما الزوجية المعتادة.

ووافقت..

عادت إليه بعد ان قطعت عهداً لزوجها وضميرها ألا تسيء طريقها مرة ثانية.

وعاشا في استراليا، وطنها، حتى انتقل الزوج من جديد إلى لبنان.

ولم يفكرا بفؤاد مطلقاً، فهو بالنسبة إليهما إنسان منسي، يجب ألا يعتلي مسرح حياتهما مرة ثانية...

فعادا.

وأفهمه محدثه إنه لن يكون راضياً إذا حاول اعتراض طريقها، فالحب لن يكون بالقوة وقد قررت ان تحب زوجها فقط، وتخلص له.

كان فؤاد يستمع إلى هذا الحديث، وهو غير مصدق.

ما هي الجناية التي ارتكبها ليتسحق هذا الحكم الجائر؟

من جديد تفجرت في نفسه ذكريات الماضي الجميل...

وتساءل، هل هي ذكريات حلوة حقاً وأين معنى الجمال فيها!!

تنقل بالفكر، يجوب تاريخه الحافل بالنساء...

وفي كل مرة، كان يعود إلى النتيجة نفسها والنتيجة واحدة رغم اختلاف الأشخاص.

ما هو السبب؟

لماذا تنتهي علاقته بالنساء دائماً هكذا؟ هل كتب لجميع النساء اللواتي قادهن الحظ إلى حياته، ان يكن من جبلة واحدة؟

لحظات متعة عابرة، وتمحى المرأة من حياته... شقراؤه الاسترالية، التي احبها حتى الجنون، وربط مستقبله بطلاقها، تعود إلى وطنه من جديد إنسانة جديدة، تراه ولا تتعرف إليه، كأنها لم تره من قبل.

الغربيات من النساء كلهن سواء...

وابتسم ابتسامة صفراء حين ذكر كلمة غربيّات...

ألم تكن اختباراته مع اللبنانية عقداً ومشاكل؟

وتوجه إلى التلفون، يطلب رقم الشقراء التي لا زال يحبّها وتصدّه. وادار قرص التلفون خمس مرات، وقبل أن يدير الرقم الأخير، توقف لحظة، يفكر فيما يجب أن يقول...

كان عليه ان ينتقي كلاماً.

إذا لم يستطع أن يأسرها بشخصيته ووعده بالزواج، فقد يأسرها بكلمة.

نعم.

ماذا يقول؟

وتتالت الأفكار في مخيلته، حتى استقرت على رأي أخير.

سيقول: شكراً للرسالة التي بعثت بها إليّ. الرسالة الشفهية طبعاً. إنني أقدرك واحترمك كما كنت في الماضي، بل وأكثر.

أنا أؤمن يا «جون» بالفضيلة، فلا تعتقدي إنني سأدخل حياتك من جديد، بل على العكس، إنني اهنئك بقرارك واستقرارك، وارجو لك ولزوجك مايك حياة سعيدة هانئة.

واعجبته الكلمات، فأعاد تلاوتها على نفسه مرة ثانية، وابتسم. لا بد انه يشتري الصداقة باللطف، وغداً يطير الزوج في رحلة تستغرق اسبوعاً... وسيكون بالطبع صديقاً.

وادار قرص التلفون للمرة الأخيرة. ومن طرف الخط، جاء صوت مايك يقول: «الو...» وماتت الكلمات على شفتيه، لم يحسب حساباً لمايك... ماذا يقول؟

وتعثرت الكلمات على شفتيه، وهو يقول بالإنجليزية:

ـ أنا فؤاد.

وبصوت اجشّ، فيه رصانة وحزم وقرار، اجابه مايك:

ـ اسمع يا فؤاد، جون زوجتي، فاخرج من طريقها.

واقفل السماعة بعصبية ظاهرة...

ومضت لحظات أفاق فؤاد بعدها من صدمته، وقد بردت السماعة بين يديه، فأعادها إلى مكانها.

أعاد السماعة إلى مكانها، وهو حائر.

جون، الشقراء، تعود إلى زوج تافه سكير كاد أن يقتلها.

ومايك، الماجن، كانت حجته في العودة إلى زوجته إنه اعتادها كما اعتاد بنت الحان.. هذه حكاية الزوجين، يقف منها على الهامش بقعة سوداء.

لا...

لن يكون بقعة سوداء!!

لقد رضي أن يكون رقماً صغيراً في العالم الواسع، ولكن حتى «الرقم الصغير» لا يستطيع أن يقبل بهذه النهاية لقصته مع .. جون.

اقنع نفسه أنه لن يطارد الشقراء التائبة، لأنه اشتاق إليها... بل لينتقم لنفسه منها ومن زوجها...

ولم يطل به التفكير، لقد توصل إلى طريقة.

راقب مواعيد سفر الزوج، حتى إذا ايقن أنه غادر بيروت في

رحلة تستغرق أياماً، قصد سوق الصاغة، فاشترى خاتماً ذهبياً وتوجه إلى بيت شقرائه...

ضغط على جرس الباب، وانتظر.

وبعد لحظات، سمع وقع أقدام انثى، تقترب من الباب وتفتحه...

وما أن رأته حتى صعقت للمفاجأة... وقبل أن تستعيد وعيها الكامل ورباطه جأشها وتغلق الباب في وجهه، كان قد دخل البيت واغلق الباب وراءه.

اتكأ على الباب الموصد وقال بلهجة هادئة:

ـ اسمعي يا جون، لا تخافي من زيارتي لك... فأنا إنسان احترم المرأة، كل امرأة، مهما كانت.

جئت لأقول لك كلمة واحدة، وحتى هذه الكلمة، لا أريد أن اقولها عنوة، استأذنك أولاً، فإذا سمحت قلتها، فما رأيك؟ هل تأذنين؟

قالت: ـ أرجوك.

ـ هل تضايقك مني كلمة واحدة؟

ـ نعم ولا...

ـ لا بد من لا... أو نعم.

ـ أخاف.

ـ مم تخافين؟

- من نفسي.
- إذاً لا علاقة لي بهذا الخوف...
- بل انت سبب خوفي، أخاف على نفسي منك.
- وماذا يخيفك مني؟
- لطفك!!
- تريدينني أن أكون شرساً إذاً؟
- لا يمكن أن تكون شرساً.

وهمّ بأن يقبلها..

فصدّته.

وتناول يدها في رفق ولين، ومسح شفتيه عليها، ثم تنقلت شفتاه على ساعدها، تسلكان الطريق ذاتها، التي سلكتها قبل زمن، فلم تتعثرا...

وعلى قمة تلك الطريق الحريرية، اتجهت الشفتان إلى اليمنين، نحو العنق.

وشعرت بأنفاسه الحارة تهب على صدرها، تبعث فيها الذكرى والنشوة والماضي الجميل والواقع الذي لا يحتمل...

واستجمعت قوتها في يسراها، ورفعتها تحاول أن تهوى بها على خده في صفعة تؤكد له انها شريفة...

إلا ان اليد، كانت قد تخدرت، فخانت صاحبتها، وهوت على كتف فؤاد بضمة، تؤكد له ان المرأة التي وقعت مرة ستقع كل مرة...

... فجأة مات ضميرها، نسيت توبتها.

ضميرها الذي كان يؤنبها على أثمها معه في السابق، مات الآن.

هي التي أماتته، لانها لا تريد ضميراً يردع...

وتمكن من هدفه.

وراودته أفكار الثأر، هل يصفعها ويتراجع؟

هل يعلمها امثولة في الشرف؟

هل يواجهها بشخصيته القوية التي اعتادت الضعف في كل هذه المواقف؟

وقبل ان يستقر على رأي، كانت شفتاه تبحثان عن أثار شفتيه على شفتيها.

وطال البحث...

بعد دقائق، همس في اذنها:

ـ هل تسمحين لي بالكلمة التي جئت اقولها لك؟

ـ ارجوك.

ـ أما زلت خائفة؟

ـ لقد تعديت الخوف.

الجندي يخشى المعركة ما دام بعيداً عنها، أما إذا وصل الميدان وسمع ازيز الرصاص نسي الخوف.

ـ إذاً لا تريدين سماع كلمتي؟

ـ ارجوك، لا تضِع الوقت. قبّلني...

وقبّلها.

وبعد تلك القبلة، لم يترك لها مجالاً لطلب المزيد.

طالت بهما الجلسة، وهما لا يعلمان...

استمع إلى القصة كاملة.

قصتها، التي هي بعض قصته. نفس الكلمات، ونفس التفاصيل.

في الماضي، عندما سمع القصة تأثر وتعطف عليها.

الآن يستمع إليها ويبتسم.

واخبرها بدوره، كيف حاول ان يحادثها على التلفون، وكيف صده زوجها، فقالت:

ـ أرجوك لا تذكر لي زوجي الآن، دعنا نقضي ساعة من الزمن بلا رقيب.

ـ هل تخافين زوجك وهو بعيد؟

ـ كلاّ، لا أخاف شيئاً الآن.

ـ ولماذا تتجنبين الحديث عنه، او مجرّد ذكره؟

ـ لأنني أحاول أن أنساه.

ـ هل تذكرينه في هذه اللحظة.

هذه المرة كانت هي التي أسكتته بقبلة...

قبلة طويلة طالت حتى الصباح.

* * *

كانت نظراتها إليه مزيجاً من الجنون والغيرة والثأر...

ولم يعبأ بنظراتها، فتابع ارتداء ثيابه بهدوء وبطء... كأنما يستفزها ويتلاعب بها وبجنونها وغيرتها وثأرها.

واختمرت تيارات النظرة على الجسد الذي كان عارياً قبل دقائق... وعندما تحرّك نحو الباب، كان جنونها منه قد استحال إلى جنون به، وغيرتها عليه قد تحولت إلى دبيب من الشهوة المتزايدة... أما الثأر فقد مات فيها.

وتبعته مسرعة، وتعلقت بعنقه وهي تقول:

- إلى أين انت ذاهب؟

- إلى البيت.

قالها بجفاف وقرف، فيما حاول أن يخلص عنقه منها... فازداد تعلّقها به... ثم ارتمت على قدميه ترجوه بدموعها أن يبقى.

وفجأة رن جرس الباب.

وبهدوء مد يده يرفعها عن الأرض.

وبهدوء مدّ يده إلى الباب ليفتحه.

وبهدوء رأى الزوج مايك يقف أمامه مخموراً كعادته.

وابتسم مايك، وهو قال:

- آسف لقد اخطأت الشقة!!

- لا لم تخطىء الشقة... زوجتك هي التي اخطأت في معرفة مواعيد عودتك.

ولم يتوقف مايك عن الابتسام. لقد تسمرت الابتسامة على شفتيه، وكأنه اقنع نفسه بأنها المهرب الوحيد من الموقف العاصف، وأجاب بسخرية حادة:

ـ إنها دائماً هكذا... تنسى المواعيد!

ورد عليه بسخرية أعنف:

ـ يجب ان تشتري لها مفكرة صغيرة...

وجاء صوتها من الخلف قائلاً:

ـ أهلاً مايك... لم أتوقع عودتك قبل مساء الغد.

ولم يجبها مايك، بل نظر إلى فؤاد طويلاً ثم قال:

ـ لقد تبيّن لي ذلك...

وخطا مايك بسرعة إلى الداخل ليقف أمام زوجته، ليفاجأ بها تقول:

ـ يجب أن تشكر فؤاد على تضييع وقته في الجلوس معي... وتسليتي اثناء غيابك الطويل.

وتقبل مايك الصفعة بنفس السخرية التي تقبل بها وجود فؤاد، واستدار نحوه وهو يمدّ يده مصافحاً ويقول:

ـ الف شكر يا جاري العزيز، أنا وزوجتي «المحترمة» سنذكر لك هذا التلطف طوال حياتنا..

وقبل أن يفتح فؤاد فمه ليجيب، كان الزوج يتابع:

ـ وأنا اقترح ان تستغني عن شقتك، وتأتي لتقطن معنا، كي

نشترك معاً في أعباء الحياة الزوجية... وحدق فؤاد في وجهه مستغرباً، بينما انطلق مقهقهاً وهو يسأله:

ـ اتعجبك جون... إنها رائعة أليس كذلك؟

وكاد يغمي على فؤاد. فقد توقع كل شيء إلا هذه السخرية التي لا يعرف كيف يجيب عليها.

أما جون فكانت تنقل نظرها بين زوجها، وعشيقها وهي تتوقع أن ينفجر الموقف في أية لحظة.

لكن الموقف لم ينفجر... بل زاد سخرية، فقد حاول فؤاد ان يعتذر عن البقاء بحجة انه مشغول، فرفض مايك اعتذاره متسائلاً:

ـ بربك لو لم افاجئكما بالحضور أكنت تذهب بهذه السرعة. تعال... تعال يا صديقي لنشرب كأس زوجتي معاً.

وظن فؤاد عندما جلس معهما في الصالون بأنه سيتوقف عن السخرية، لكنه اكتشف خطأه بعد لحظات عندما شرب مايك الجرعة الأولى من الكأس التي صبها لنفسه بسرعة... فقد سألهما وهو يضع على وجهه قناعاً من الوقار:

ـ والآن اخبراني كل ما فعلتما معاً الليلة... هل قرأتما كتاباً، أو استمعتما إلى قطعة موسيقية، أو قضيتما الوقت في «البحلقة» بالسقف...

وانفجر ضاحكاً، وهو ينظر إلى نظرة البلاهة التي ارتسمت على وجه كل منهما...

وحاول فؤاد ان يضحك...

ان يجيب على القهقهة بقهقة... لكن ضحكته خرجت وكأنها مواء ضعيف لقط جريح...

وصمت مايك فجأة، ثم نظر إلى عيني فؤاد وقال:

ـ دعنا الآن من المزاح، لقد كنت عازباً مثلك فيما مضى وكنت اسطو على زوجات الغير تماماً كما تفعل أنت... ولكن ليس بالطريقة المفضوحة التي تتصرف بها أنت...

أنت تتصرف كطفل مغفل...

في المرة القادمة عندما تسمع جرس الباب... أسرع إلى أقرب نافذة... واقفز منها، حتى ولو تحطمت رقبتك... ألم تسمع كيف كان يهرب كازانوفا من النافذة... ألم تقرأ كيف كان يقفز العشاق من الشرفات... لا... لا يجب أن تكون ذكياً في المرة القادمة، ذكياً وحذراً...

وتابع:

تصور لو كنت أنا من النوع العصبي، النوع الذي يضرب عشاق زوجته، ألم تكن الآن تمسح الدماء التي تنزف من انفك الأنيق... لا، لا، أنت جاري، وجاري العزيز، وعلي أن اسديك النصائح الخالصة، الصادقة، الصادقة من أية غاية.

وحاول فؤاد ان يعتذر مرة أخرى. حاول ان ينهض. ولكن مايك عاجله بان وضع يده على كتفه وأعاده إلى مقعده وهو يقول:

ـ لا... لا، لن اسمح لك بالذهاب الآن، وإلى أين تذهب في هذه الساعة المتأخرة، إلى الكبارية. الجو هنا يقرب من هناك.

إلى النوم، حرام أن يقضي شاب مثلك وقته في النوم، اجلس، اجلس يا صديقي ودعنا نتابع الحديث عن الزوجات الخائنات والعشاق المغفلين...

وجلس وهو يشعر بأنه لم يتعرض لموقف دقيق مثل هذا في حياته. وحاولت جون ان تتدخل، ان تنقذ الموقف، لكن مايك اسكتها قائلاً:

ـ أنت ممنوعة من التدخل، لأنك موضوع البحث...

والتفت إلى فؤاد متابعاً الحديث:

ـ ونصيحة أخرى يا صديقي الغالي. لنفترض انك لم تستطع أن تقفز من النافذة ولنفترض أنك عجزت عن الاختباء في خزانة ثياب... أو تحت السرير، على الأقل سارع عندما تسمع رنين الجرس إلى مسح «أحمر الشفاه» عن شفتيك وإلى تعديل ربطة عنقك كي لا يفضحك الأحمر أو يصرخ الرباط بما كنت تفعل في غرفة نوم... جارك!

وشرب جرعة أخرى من كأسه ثم تابع:

ولنفترض انك لم تقفز من النافذة، أو تختبىء في الخزانة أو تحت السرير... ولنفترض انك وجدت نفسك وجهاً لوجه أمام الزوج، لا تقف هكذا كالأبله، اصرخ، تصرف، افتعل معركة. ومع كلمة معركة كان يقفز من مقعده ويقف صارخاً:

لم لا تفتعل المعركة الآن. قف على قدميك، قف يا رجل...

ووقف فؤاد لا ليفتعل معركة، بل ليتوجه إلى باب الشقة، ومنه مسرعاً إلى المصعد، ومنه إلى الشارع، وفجأة بدأ يركض..

وظل يركض، فقد لعبت الخمرة برأسه فتوهم ان مايك يتبعه... ولم يتوقف إلا عندما ايقن انه قد أصبح في مأمن من معركة مع مايك.

وبدأت معركته مع نفسه. لقد اكتشف أنه رغماً عن كونه تافهاً... يعيش بلا هدف ولا مستقبل. فهو جبان.

لقد خاف من مايك.

لقد ذعر من مايك.

ولو قرر مايك المخمور الذي يكبره بسنوات ان يصفعه لما عرف كيف يرد عليه...

وازداد شعوره بالصغر. انه ليس فقط رقم صغير، إنه رقم صغير... وجبان أيضاً.

ومشى تائهاً في شارع الحمراء وشيء ثقيل يضغط على صدره... شيء لا يعرف ماذا يسميه، وكيف يسميه.

إنه مزيج من التفاهة والصغر والجبن والحقارة، وظل يمشي بلا هدى حتى وصل إلى الكورنيش...

واعاد إليه هواء البحر هدوء أعصابه، وهدوء تفكيره. ولكن لم يعد إليه الشيء الذي كان يبحث عنه، الشعور بالثقة لقد تلاشت ثقته بنفسه... انتهت!!

وحاول ان يتذكر حتى انتهت... او على الأصح حتى بدأت...

هل كان واثقاً من نفسه في أي فترة من فترات حياته؟

نعم. عندما كان في القرية... عندما كان يشعر بأنه يتفوق على أقرانه هناك بأنه ابن «الملاك» ابن الغني، ابن صاحب الزيتون...

وقد بدأت هذه الثقة تتلاشى منذ أن غادر القرية إلى بيروت...

منذ ان شعر بأن شوارع بيروت مليئة بالعشرات من أمثاله أصحاب كروم الزيتون. منذ أن شعر بأنه واحد فقط، واحد بين عشرات...

رقم صغير بين المئات...

وكلما مرّ يوم.

وكلما مر اسبوع، تضخم هذا الشعور حتى وصل الليلة إلى أقصاه.

وشعر بأنه حبيس.

«الخمرة زادته شعوراً بالسجن».

حبيس نفسه.

«الخمرة تزيده توتراً»

وحبيس صدره.

«الخمرة.. تكاد تفقده صوابه»

وحبيس ضميره.

«الخمرة.. تعميه»

وحبيس هذا البلد.

وقرر ان يتخلص من هذا البلد.

أو...

«وازداد الضجيج في رأسه».

ولمعت الفكرة في رأسه فجأة...

يتخلّص من نفسه.

وتسمرت قدماه فجأة

واجتاحه رعب غريب...

رعب يقرب من الجنون.

فقد وجد نفسه فجأة أمام «الروشة»... صخرة الإنتحار!!

* * *

وأعاد إليه الرعب الغريب الذي اجتاحه بعضاً من الهدوء...

وبدأ يناقش نفسه.

سأل نفسه، لماذا ينتحر؟

وهل تستحق هذه الحياة ان يضحي من أجلها بحياته؟

وعبثاً حاول أن يجد الجرأة في نفسه كي يقدم على الانتحار، واكتشف بعد طول تردد إنه أجبن «حتى» من الانتحار.

اكتشف بمنتهى الإستغراب ان الانتحار كالاستمرار في الحياة يحتاج إلى شجاعة خاصة.

إنه تماماً كأي عمل ضخم يقوم به الإنسان في حياته، وإن على المنتحر ان لا يقدم على هذه الخطوة التي تحتاج إلى شجاعة، إلا

بعد أن يشبعها درساً وتفكيراً. وبدون ان يدري أو يشعر، أحس بدمعة تترقرق من عينيه لتغرق وجهه، وشعر بأنه في طريقه إلى وداع حياته، وانه يكاد في لحظة يأس جارفة، ان يقدم على عمل ليس من الرجولة بشيء...

وقف أمام الصخرة الفارهة والموج يضربها بقسوة تشبه قسوة الصدمة التي أصيب بها. وفي صخب كصخب الموج، مر بخياله شريط حياته المتلاطم.

تذكر طفولته وصباه، شبابه وعنفوانه، تذكر والدته التي تكاد تكون قديسة، ووالده الذي يقدس الحياة ويراها من خلال أرضه.

وتذكر أيام الدراسة، أيام الجامعة، ومرت في ذهنه ذكريات الفتيات والنساء اللواتي مررن في هذه الحياة، واستغرب انه نسي الذكريات البائسة والذكريات المؤلمة وان الشريط قد انقلب في ذهنه إلى شريط مرح ضاحك، وانه قد بدأ وهو في طريقه إلى وضع حد لحياته، يشعر ان الحياة أجمل وأحلى من ان ينهيها فجأة، وإن الله الذي خلقنا ساعة شاء، يأخذ منا الحياة ساعة يشاء، وان لا حق للمرء في أن يأخذ أو ينهي حياته.

وشعر فوق هذا كله بأنه في خضم يأسه وقنوطه قد نسي أن هنالك في الحياة شيئاً اسمه الأمل، وأن هنالك شيئاً اسمه المستقبل، وإن الدنيا لولا الأمل والمستقبل لكانت اصبحت مظلمة حالكة في وجه نصف البشرية، وتراجع من مكانه

خطوة إلى الوراء خوفاً من ان تعاوده الرغبة الجازمة في الانتحار فيقدم عليه وهو راغب فيه.

واستدار كي يعود إلى الحياة، وكي يستمر فيها، وكي يحاول أن يجد فيها شيئاً يعيش من أجله.

ومشى إلى الأمام وهو يشعر بآفاق جديدة تدخل إلى حياته.

في اللحظة التي كان ينزل فيها عن الرصيف فوجىء بسيارة تاكسي تقف فجأة أمامه، وتنزل منها فتاة لم يتبين وجهها في الظلام فتغلق الباب وراءها وتتجه مباشرة نحو الصخرة الملعونة.

ولم يدرك ما هو الدافع الغريب الذي جعله يلحق بها. هل كانت الطريقة الغريبة التي نزلت بها من السيارة، أم كانت اللهفة التي ظهرت في مشيتها نحو الصخرة، أم أنها هاجس مبهم جعله يلتحق بها، ثم جرى كل شيء بسرعة، فقد وقفت الفتاة على حافة الخطر ثم التفتت حولها. وعندما رأته يقف وراءها ذعرت، ثم حاولت ان تقفز. ومدّ يده فجذبها إلى الخلف وهو يصرخ بها أن تقف...

واستدارت لتصرخ به ان يتركها. وحاولت ان تتخلص من يديه، لكنه منعها بقوة واحتضنها بين يديه وظل يحيطها بذراعيه حتى استكانت وهدأت... فلم يسمع من صوتها إلا صوت بكاء مكتوم حاولت ان تخفيه بوضع يدها على فمها...

ولم يكلمها، بل بأبّط ذراعها وقادها بعيداً عن صخرة الانتحار، وظل يمشي وهي بجانبه حتى وصل إلى أحد المقاعد الحجرية المتناثرة على الكورنيش المهجور...

فجلس معها وهو لا يزال صامتاً ينتظر ان تكلمه، واستمر الصمت بينهما لدقائق طويلة، ومد يده إلى جيبه فتناول علبة السجائر، واشغل سيجارتين ناولها احداهما وجلسا يدخنان بلا كلام.

وبعد دقائق، رمت بعقب السيجارة إلى الأرض وداسته بقدمها ثم تكلمت فجأة وقالت:

ـ لماذا منعتني عن الانتحار؟

فأجاب وهو ينظر إلى وجهها للمرة الأولى:

ـ لأنني كنت قد منعت نفسي عن الانتحار قبل لقائك.

ـ إذاً أنت مثلي تعتقد ان الحياة لا تستحق ان نحياها؟

ـ كنت أعتقد ذلك قبل ساعة من الزمن، أما الآن فأنا اؤمن بأنها أجمل من ان ننهيها بهذه الطريقة.

ـ ما الذي كان يدفعك إلى الانتحار؟

ـ الشعور بأنني يجب ان لا أضيف بوجودي عبئاً جديداً على الحياة، وانت ما الذي دفعك إلى هذا الجنون؟

ـ شعور بانها الطريقة الوحيدة للتخلص من مشكلتي..

وعاد يتفحصها بعينيه وهو يسأل:

ـ وما هي مشكلتك؟

ـ مشكلة خاصة لا أحب أن أثقل عليك بها.

ـ على العكس، لقد قادتني الأقدار إلى حياتك لكي تثقلي علي بها.

ـ إنها مشكلة عادية لا تستأهل منك ومن الناس إلا الاحتقار.

ـ هل تحدثت بها إلى أحد من الناس؟

ـ لشخص واحد كان احقر من ان يستمع إليها.

ـ ومن هو هذا الشخص؟

ـ الرجل الذي كان السبب المباشر للمشكلة.

وعاد يسأل بالحاح عن المشكلة. وعادت تصر على كتمانها، وظل يقنعها لاكثر من ساعة حتى قالت في النهاية:

ـ إنها مشكلة عادية تحدث كل يوم.

مشكلة فتاة صغيرة تغرق في حب شاب، وتؤمن بأن الحب يستطيع ان يتخطى جميع المصاعب، وتؤمن فوق هذا كله ان حبها يمنحها الحرية لأن تتصرف كما تشاء، فتتصرف كما تشاء وتكون النتيجة ان تحطم حياتها وتحطم بالتالي حبها.

وتستيقظ ذات يوم لتجد أن الحبيب لا يعترف بهذا الحب ويتنصل من جميع مسبباته، بل ويهرب من صاحبته.

وباختصار انها مشكلة كل فتاة يغرر بها شاب.

وصمتت فعاد يسألها إيضاحاً، قال لها بغباء:

ـ لم أفهم!

ـ لم تفهم لأنك لم ترد ان تفهم. مختصر القضية إني أحمل في أحشائي جنيناً من شاب أحببته، وثمن هذا الجنين في نظر أهلي ومجتمعي أما أن أقضي عليه وهذا ما لا أقدر على احتماله أو يقضي علي... وهذا ما ارهبه.

أو أقضي على نفسي.

وفضلت الحل الأخير لأنه أسهل الحلول الثلاثة. فجئت أنت تمنعني وتصر على معرفة قصتي...

والآن قد عرضتها هل لك ان تخبرني ماذا تريد أن تفعل؟

ولم يجبها.

كانت تدور في ذهنه دوامة من الأفكار والأسئلة.

شعر لأول مرة في حياته بأنه يتحمل مسؤولية ما يشعر، بان حياة فتاة وطفل معلقة بكلمة يقولها في هذه اللحظة.

شعر بشيء يقرب من البطولة. شعر بأنه في هذه اللحظة بالذات أصبح لحياته معنى خاصاً لم يشعر به من قبل.

إن حياته معلقة بحياة هذه الفتاة الغريبة التي دخلت إلى حياته فجأة... والتفت إليها يقول وقد ملأه الكبر:

ـ أريد ان أتحمل مسؤولية هذا الخطأ وارجو ان تسمحي لي بذلك.

ورفعت عينيها إليه وقالت بصوت فيه ذهول ورعب: انت مجنون..

ـ أعرف ذلك.

ـ ماذا تريد مني؟

ـ أريد أن أربط حياتي بحياتك.

ـ لماذا؟

ـ لأنك تشفق علي؟

ـ لا... لانني بحاجة إلى ذلك.

ـ وما حاجتك إلى ذلك؟

ـ حاجتي إلى إنسانة تعطي لحياتي معنى.

ـ ولكنك قررت هذا القرار الخطر فجأة... إلا تريد ان تفكر؟

ـ لا. ولقد قضيت الساعة الأخيرة في التفكير وكاد التفكير يقودني إلى الإنتحار، أما الآن فقد ارسلك الله لي، ولعله شاء ان يرسلك لي لكي انقذ نفسي مما كنت أعانيه. انت رسول الله إليّ..

ـ أتقدر خطورة ما تقول؟

ـ كل التقدير، لم أشعر بقيمتي كإنسان إلّا هذه اللحظة.

ـ انت تهذي.

ـ بل أنا بكامل قواي العقلية.

ـ ولكني لا أعرفك!

ـ لا تخافي. سنتعارف.

ووقف ليمد يده ويقول بصوت فيه عزم وتصميم: هل تقبلين بي أباً لطفلك؟

وأجابت بحدة:

ـ لا.

ـ لأنني لا زلت مع كل ما حدث، أحب الأب الحقيقي لطفلي.

ـ لكنه جبان، أبى أن يتعرف إليك وأنت في محنتك.

وعادت تبكي وتقول:

ـ ولكنّي أحبه.

ـ إذاً، عودي إليه.

ـ إنه لا يريدني.

ـ والحلّ؟

ـ أن أعود إلى حيث انقذتني.

ـ إلى الإنتحار؟

ـ نعم.

وشعر بأنها تعني ما تقول، وبأنه لو تركها لحظة واحدة لنفذت فكرتها، وبصوت ملؤه الرجاء قال لها:

ـ ألا يمكن أن تؤجلي فكرتك إلى الغد؟

ـ لماذا؟

ـ ارجوك باسم حبك الذي كان ان تؤجلي الموضوع إلى الغد.

ـ وماذا سأفعل في الغد؟

ـ تبقين معي.

ـ أين؟

ـ في منزلي.

ـ لقد قررت أن لا أذهب إلى منزل عازب.

ـ إذاً، عودي إلى منزلك.

ـ لا استطيع، فقد قررت أن أتركه إلى الأبد.

ـ إذاً، تعالي إلى منزلي وسأنام أنا في الفندق.

وطال الجدل بينهما واستطاع أخيراً ان يقنعها بأن تنام في منزله... واوقف سيارة تاكسي واتجها إلى المنزل.

وصعق عندما فتح باب المنزل ووجد جون تجلس في الصالون..

* * *

ونظرت إليه جون بهدوء وتأملته وهو يدخل مع الصبية الصغيرة وعلى وجهها آثار الدموع...

وتقدم نحوها ليمد يده مصافحاً، فلم تتحرك ولم ترفع يدها بل رفعت عينيها إليه لتقول:

ـ كنت أعرف بأنك خداع ولكنني لم أكن أعرف ان الخداع يصل في نفسك إلى مرتبة الصفاقة.

وعبثاً حاول أن يشرح لها كيف تقابل مع الصبية الحسناء وما هي علاقته بها. فقد رفضت ان تسمع إليه، بل انطلقت تصفه بعبارات قاسية ما ان انتهت منها حتى كانت تنهض نحو الباب غير مصغية إلى رجائه وإلحاحه عليها ان تبقى...

وبقي لوحده مع الصبية التي انقذها من الانتحار. وما كاد وقع خطوات جون يغيب في الردهة الطويلة حتى كانت الصبية تنهال عليه بسلسلة من الأسئلة: من تكون هذه السيدة؟ زوجتك؟ عشيقتك؟ هل كنت تعرف إنها هنا؟

وإذا كنت تعرف فلماذا اتيت بي؟ ألم تقل لي أنك تعيش وحدك؟ وأيضاً حاول عبثاً أن يشرح للصبية موقفه من جون.

ولم تستمع بل تابعت الأسئلة، واكتشف في تلك اللحظة أن المرأة عندما تتكلم وهي في حالة غضب تفقد حاسة السمع وحاسة النظر ولا تعرف إلا ان تتابع الحديث.

وابتسم لفكرة طارئة طافت في مخيلته وكانت فكرة قرأها في احدى المجلات، وهي الفكرة التي تقول ان أسعد الأزواج هم أولئك الذين يصمتون عندما تتكلم زوجاتهم.

وأخيراً جلس يستمع إلى اسئلتها وهو يجيب حتى هدأت لوحدها وانقلبت الأسئلة إلى سيل من الدموع حار كيف يوقفه!

ونهض، كعادته كلما يتعرض لمأزق مع فتاة، إلى البار، فأحضر كأسين من الوسكي ناولها أحداهما وجرع الثانية كي يهدىء من أعصابه. وفوجىء بها تقذف الكأس على الأرض فتحطمه وهي تصرخ «لقد ظننت أنك تختلف عنه فإذا بك مثله ومثل غيره من الشباب تلجأون إلى الخمرة كلما اردتم تحطيم ارادة الفتاة... لقد فهمت الآن سر أصرارك على حضوري معك إلى الشقة...»

وعادت من جديد تبكي وتصرخ وتتكلم في آن واحد.

وعاد هو من جديد يجلس صامتاً ينتظر إنتهاء الأزمة. وانتهت الأزمة، واكتشف إنه أمام فتاة معقدة، مريضة، اصابتها الحياة بصدمة لم تستطع معها أن تسيطر على نفسها، وأتى هو لينقذها بعد أن كادت الصدمة تؤدي بها إلى الانتحار.

فإذا بها تلقي عليه بعبء الصدمة وبعبء ذكرى حياتها القاسية، وإذا به بدلاً من ان يجد علاجاً لمشكلته يبحث عن علاج لمشكلتها، وإذا بمشكلته تنصهر بمشكلتها، وإذا به يقرر ان يواجه المشكلتين معاً.

ويتركها لدموعها وينتقل إلى البار يشرب كأساً جديدة وهو يشعر بأن عليه ان يتخذ، ولأول مرة في حياته، قراراً جدياً يتعلق بمستقبل هذه الحياة.

ها هو يائس من حياته يلتقي بيائسه من حياتها فتجد فيه إشراقة أمل، ويجد فيها مهرباً من يأس، فلم لا يجمع حياته بحياتها كي يواجها الحياة معاً.

أي: لماذا لا يتزوجها؟

بهذه الطريقة، أو في هذه الحال، قد يجد معنى جديداً لحياته، وتجد هي منفذاً لأزمتها، ويجد الطفل أباً يرعاه عندما يرى النور.

إنه بهذه الطريقة يوفر على العالم لقيطاً جديداً يضاف إلى قائمة اللقطاء. أو يوفر حياة كادت ان تزهق على صخرة الانتحار.

ومع الكأس الثالثة كان قد قرر بطريقة نهائية ان يتزوج من الصبية الباكية على بعد أمتار منه.

وعاد إليها يعرض عليها الفكرة الجريئة، فرفضت. انها تحب حبيبها الهارب وهي لا ترضى ان تعيش مع رجل لا تحبه، وهي أيضاً لا ترضى أن تكون طوال حياتها تحت رحمة تضحيته.

قالت له:

ـ أن أقسى ما في الحياة هو ان يعيش الإنسان مع شخص انقذ حياته، فلو كرهه لا يستطيع ان يتركه عرفاناً بالجميل، وهو لا يستطيع ان يتصرف معن كإنسان خوفاً من ان يجرح أحاسيسه. وهو بالتالي سيعيش وكأنه في قيد دائم، وهي ارادت ان تتخلص من حياتها لأنها تكره القيد الدائم..

ناقشها بهدوء. قال لها إنها هي أيضاً ستنقذه من يأسه.

اخبرها بأنها قد انقذت حياته، فقد كان هو أيضاً أمام صخرة الانتحار يفكر في الانتحار. وقال:

ـ لقد علمتني الحياة ان الحب وهم كبير. إنه تماماً كالخمرة أو الحشيش يلجأ إليه الأنسان لينسى واقعه. تأثيره مؤقت ينتهي مع عودة هذا الواقع. إن الحب طريقة اخترعها الإنسان لنفسه كي يهرب عن طريقها من حياته.

إنه يعيش أيام الحب وكأنه في خيال. لقد احببت في حياتي أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أشعر بأنني لا استطيع ان استغني عمن أحب وإذا بي اكتشف ان حياتي استمرت تماماً كما كانت، عندما غاب عني الحبيب. أن أسعد الناس، أو على الأصح، أسعد الأزواج هم الذين لا يعيشون قصة حب وإنما يعيشون قصة محبة. إنهم يتعودون على بعضهم البعض. وكلما مر يوم، كلما ازدادت سعادتهم.

إن الحبّ، يا صغيرتي، شيء تعلمناه تماماً كما تعلمنا القراءة. ونحن نمارسه ليس لأننا نؤمن به، بل لنمارس ما تعلمناه. غداً إذا تزوجنا ستنسين والد طفلك وستنسين قصة حبك، وإذا

ذكرتها فستكون بمثابة قصة عابرة في حياتك، وأنا أعدك أن أحاول جعل حياتنا سعيدة بقدر ما نحن تعساء الآن.

إن أشد الناس وفاء لبعضهم هم أولئك الذين تجمعهم مصيبة، لا أولئك الذين تجمعهم فترة سعادة. إن لقاءهم في المصيبة يجعلهم يشعرون بأن أي وقت في حياتهم هو أسعد من وقت اللقاء. انهم فيما تلا من الأيام يبنون سعادتهم حجراً حجراً لا كالذين يلتقون في وقت السعادة ثم يبدأون في هدم تلك السعادة حجراً حجراً.

أنا لا أطلب منك جواباً الآن.

أريدك أن تفكري في الموضوع واجيبيني غداً أو بعد غد إذا شئت. ولكن إياك ان تعطيني جواباً قد تندمين عليه طوال حياتك. والآن انك تعبة، ونحن نكاد نستقبل الفجر، فما رأيك لو نمت لساعات قليلة لتسترجعي بها اعصابك المهدورة.

ونهضت لتنام، ونهض ليفكر.

وسأل نفسه هل اخطأ في قراره وهل تسرّع؟

وانتهى به التفكير إلى أنه قد اتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ونام من الاعياء على كرسيه.

* * *

واستيقظ بعد وقت قصير ليسمع وقع خطوات في غرفة النوم حيث تنام... ثم سمع الباب يفتح، ورآها أمامه وهي شبه عارية.

قالت:

ـ لم استطع النوم، ولقد فكرت في كل ما قلت، ولقد قرّرت...

وصمتت فجأة...

وهب كالملهوف يسألها:

ـ ماذا قرّرت؟

ولم تجب.

بل اقتربت منه ثم أحاطته بذراعيها وهي تقول:

ـ قررت أن أنقذ حياة طفلي.

* * *

وتزوجا بعد أيام..

وشعر مع الأيام... بأنه لم يكن مخطئاً في قراره، فكلما مرّ يوم تضاءل احساسه بالتفاهة، وبدأ إحساسه بأنه رقم صغير يتضاءل، وتلاشى شعوره بأن حياته بلا هدف ولا مستقبل. وبدأ يعيش بإحساس جديد.

احساس أشبه بالبطولة.

احساس الإنسان الذي وهب حياة جديدة لإنسان آخر، وهو في طريقه لأن يهب حياة لإنسان ثالث...

شعر بأن الحياة، كل الحياة، تختصر بكلمة واحدة هي: «العطاء»...

وشعر بأنه، وللمرة الأولى قد أعطى.. فاختصر تفاهة حياته بقرار مفاجىء نفذه في لحظة. اختصر كل أيامه السابقة، بل وانتصر عليها بانتصاره على أنانيته كرجل، وعلى تفاهته كرقم صغير..

للمؤلف

١ ـ كفر	مجموعة قصص	١٩٥٤
٢ ـ المصباح الأزرق (٥ طبعات)	رواية	١٩٥٧
٣ ـ راقصة على الزجاج (٣ طبعات)	رواية	١٩٥٨
٤ ـ الامبراطورة الحزينة	سيرة	١٩٥٩
٥ ـ ليلنا خمر (طبعتان)	مجموعة قصص	١٩٥٩
٦ ـ مجتمع بلا رتوش	مقالات ساخرة	١٩٦١
٧ ـ قصة مهرب (بالاشتراك مع سليم اللوزي) سيرة		١٩٦٤
٨ ـ حارة النصارى (٣ طبعات)	رواية	١٩٦٨
٩ ـ ثلاثية فلسطين (٣ طبعات)	ثلاث روايات	١٩٧٤
١٠ ـ المقالات الغاضبة افتتاحيات مجلة المستقبل (رأي)		١٩٨٨

* * *

الغربتان	رواية	١٩٩٢

١٩٩٣

... المقالات الغاضبة: الطبعة الثانية (منقحة ومضاف إليها).

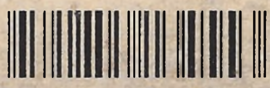
... أوراق الشتاء: قصة طويلة.

الرقم الصغير

تدور أحداث هذه الرواية خلال مطلع الستينات في بيروت وهي تعكس بأسلوب جذاب وحبكة قصصية مريحة جوانب كثيرة من حياة بيروت الصاخبة في تلك الأيام.

هذه الرواية هي شاهد حي على أحداث وقضايا وهموم تلك الفترة التي سادت المجتمع البيروتي بكل أبعاده وتطلعاته ونزواته، كتبها نبيل خوري قبل ثلاثين عاماً وما زالت أحداثها ووقائعها تثير فينا الحنين إلى ذكريات الماضي القريب قبل أن يعفو عليها الزمن.




1855134551